الباب الثانى

مكانة الصفدى العلمية والأدبية

obeikandl.com

obeikandl.com

تقدمة

ثقافتــه

كان الصفدى طُلَعَة ، محبًّا للعلم ، ساعيا إليه ، ولوعًا بالأدب ، راغبًا فيه ، له همَّة عالية فى التحصيل [١] ؛ فقد حفظ القرآن الكريم ، وقرأ الفقه والأصلين [٢] ، ودرس الحديث والتفسير ، وتعلّم اللغة ، والنحو ، واختار أكثر كتب الأدب والتاريخ ، ودواوين الشعراء ؛ فعكف عليها يحفظها ، وينسخها ، ويرتّبها ، وينتقى منها ، ويصطفى نوادرها ، وشواردها ، وبينما نراه قد أتقن علوما كثيرة كالنحو ، والبلاغة ، واللغة ، والطب ، والحساب ، والهيئة ، والجغرافية ؛ فإنّه جرى فى مزاجه وطبعه حب الأدب والتاريخ ، وما يوائم موهبته فى نظم الشعر ؛ فكانت أكثر مؤلفاته فيهما ، وهى تدلّ على ثقافة واسعة وافية منوّعة .

إلى جانب الموهبة الفطرية ، والرغبة فى العلم فقد توفّرت له وسائل ماديّة يسّرت له الحصول على الكتب [٣] ، وأصبح يمتلك مكتبة كبيرة ، يرجع إليها فى قراءته ، واطلاعه ، ويعير أصحابه منها [٤] ، وكثيرا ما كان يختلف إلى أسواق الكتب فى القاهرة ، يبتاع منها ما يروقه ، وما يعجبه [٥] ، وساعده فى ذلك ثروته الواسعة ، ومنصبه الكبير ، ورخص ثمن الكتب ، وبخاصة فى الأوقات التى تعقب الكوارث - كالطاعون - حين يحصد الموت الأرواح ، وتباع الأحمال من الكتب بالثمن الزهيد [٦] .

---

(١) طبقات الشافعيّة الكبرى ١٠ / ٥ .

(٢) مفتاح السعادة ١ / ٢٥٨ .

(٣) فى فهارس المخطوطات بدار الكتب المصرية عدد كبير من المخطوطات من ممتلكاته ، تراجع . وانظر : المغرب فى حلى المغرب ١ / ٢١ ، والنجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة ٥٩ ، ومجلة المجمع العلمى العربى م ٣ / ٣٦١ .

(٤) الوافى بالوفيات ١ / ٣٢٥ .

(٥) نفسه ٨ / ١٦١ .

(٦) السلوك ٢ / ٣ / ٧٨٦ .

ويحدّثنا الصفدى عن عشقه الكتب ، وحبّه اقتناءها ، واسترخاصه كل غال فى سبيلها ؛ فيعرض مبالغ ضخمة لشراء مخطوط [١] ، قد تصل إلى ثلاثة آلاف درهم [٢] ، وبين يدىّ ثبت ضخم بكنوز مقتنياته ، من نفائس المخطوطات ، أشير إلى القليل منها ، فمن ذلك :

* كتاب الكامل ، لابن الأثير ، فى اثنتى عشرة مجلدة [٣] ، كتبه الوطواط جمال الدين محمد بن إبراهيم ، الوراق ، وفى هامشه مناقشات للوطواط ، غلّط فيها ابن الأثير ، وواخذه .

* كتاب السموم ودفع مضارها ، لأبى موسى جابر بن حيّان الصوفى ، نسخة جيدة جدا ، كتبت سنة ٦٣٩ هـ ، وفى أولها خطوط مالكيها ، ومنهم صلاح الدين الصفدى [٤] .

* ويشترى كتاب الحاوى الكبير فى الطب [٥] .

* ويمتلك كتبا بخط ابن مشرف [٦] .

* وامتلك ديوان ابن الخياط ، وعليه خط ابن القيسرانى ، وقد قرئ عليه ، وديوان ابن القيسرانى بخطه من أوله إلى آخره [٧] .

* التنبيه والإفصاح عما وقع فى حواشى الصحاح [٨] :

وهو كتاب جَيِّد إلى الغاية ، قال الصفدى : إنَّ ابن بَرِّى - رحمه الله تعالى - وصل فى الحواشى على « صحاح الجوهرى » إلى « وقش » من باب الشين المعجمة ، من كتاب الصحاح ، وكان ذلك مجلدين ، وهى ربع الكتاب ، وكمَّل عليه الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأنصارى البَسْطِى إلى آخر الكتاب ،

---

(١) الوافى بالوفيات ٣ / ٣٥٢ .
(٢) نفسه ٤ / ١١٦ .
(٣) الوافى بالوفيات ٢ / ١٧ ، و ١٠ / ٣٦٠ .
(٤) مجلة المعهد العلمى بدمشق م ٣ / ٣٦١ .
(٥) الوافى بالوفيات ٩ / ٤٢ .
(٦) نفسه ١٠ / ٢٢٩ .
(٧) نفسه ٥ / ١١٣ .
(٨) نفسه ١٧ / ٨٢ .

فجاءت التكملة فى ستة مجلدات ، وكان جملة هذا المصنف ثمانية مجلدات ، بخط البسطى ، وقد ملكتها ، وهى جميعا بخط البسطى .

* وامتلك كتبا بخط ابن الشواء الكاتب [١] .

* وامتلك كتاب « نفائس الذخيرة لابن بسام » تأليف ابن ظافر الأزدى ، بخطه [٢] .

* وامتلك كتبا لدفترخوّان [٣] .

* وامتلك ديوان الوداعى بخطه [٤] .

* وامتلك مؤلفات ابن سعيد [٥] .

* وامتلك كتاب الأفعال للسرقسطى [٦] وعليه خطه .

* وامتلك كتبا كتبها محمد بن أحمد ، ابن قاضى الجماعة بخطه الظريف ، منها : الأذكار ، للشيخ محيى الدين ، ورياض الصالحين له ، والمفصّل ، للزمخشرى [٧] .

* قال الصفدى فى ترجمة شمس الدين الصائغ العروضى :

« له قصيدة عارض بها القصيدة الهيتية التى لشيطان العراق ، فما داناها وشرحها على هوامشها ، وملكتها بخطه ، وأخرجتها عن يدى .

وشَرَحَ الدريدية فى مجلدين من أربعة ، ملكتها بخطه ، وقد أخرجتها عن يدى لمّا وقعت على أشياء فى الشواهد ضبطها بخطه على غير الصواب ، وله « المقامة الشهابية » ، وضعها للقاضى شهاب الدين ابن الخوئى ، ملكتها بخطه مشروحة » [٨] .

---

(١) الوافى بالوفيات ٢١ / ١٥٤ .

(٢) نفسه ٢١ / ١٥٩ .

(٣) نفسه ٢١ / ٤٦٦ .

(٤) نفسه ٢٢ / ٢٠١ .

(٥) نفسه ٢٢ / ٢٥٣ .

(٦) فى العمومية رقم ١٥١٨ . انظر : بحوث وتحقيقات ١ / ١٨٤ .

(٧) أعيان العصر ٤ / ٢٣٩ .

(٨) أعيان العصر ٤ / ٣٩٧ .

ونلاحظ فى هذه العبارة حرص الصفدى على الصواب ، وتحرّيه الحقيقة ، فلا يكاد يعثر على خطأ فى كتاب ؛ حتّى يخرجه من يده ، ويبعده عن مقتنياته ، كما كان حريصا على مقابلة نسخ كتبه بنفسه ، وتصحيح الخطأ فيها [١] .

* الاطلاع على منادمة الصناع ، لمحمد بن إسحاق اليغمورى قال الصفدى : « ملكته بخطه ..وهو كتاب حسن ، كثير التورية ، يشبه كتاب ابن مولاهم المصرى فى الصنائع ، ووقفت عليه ، ورأيت فيه لُحَيْنَات ظاهرة ، لكنه ظَرَّف فيه [٢] .

وفى سيرة الصفدى نجد ثبتا ضخما بالكتب التى درسها ، أو رواها ، أو أخذها مناولة ، أو إجازة ، فمن ذلك :

* أخذ عن الذهبى جميع مؤلفاته ، وقرأ عليه كثيرا من تصانيفه ، وهى عدد كبير ، تبلغ المئات [٣] .

* وسمع من ابن نباتة غالب ما أنشأه من النظم والنثر [٤] .

* ومن ابن سيّد الناس سمع منه ، وقرأ عليه أكثر مؤلفاته [٥] .

وإذا راجعنا الكتب التى قرأها على شيوخه نجده أعدّ نفسه لثقافة منوّعة ، وشاملة ، فمما قرأه فى الحديث الشريف : قرأ للبيهقى « السنن ، واختصار السنن الكبرى ، واختصار كتاب القدر » ، وقرأ اختصار المستدرك للحاكم ، وجميع الحديث المسلسل برواية فتح الدين القمّنى ، والشمائل المحمدية ، للترمذى وصحيحى البخارى ومسلم ، وعيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير ، والنفح الشذى فى شرح جامع الترمذى ، لابن سيد الناس .

ومما قرأه فى التفسير : التفسير الكبير ، وزاد الميعاد ، والبحر المحيط ومما قرأه فى النحو : الخلاصة فى النحو ، لابن مالك ، والتسهيل ، وشرح ملحة الإعراب ، لابن الصائغ .

---

(١) أعيان العصر ١ / ٧٩ .

(٢) الوافى بالوفيات ٢ / ٢٠٠ .

(٣) الوافى بالوفيات ٢ / ١٦٤ .

(٤) نفسه ١ / ٣٢٠ .

(٥) نفسه ١ / ٢٩٢ .

ومما قرأه فى الطب والعلوم التطبيقية : رسالة فى الاسطرلاب ، لابن جماعة ، والطب الكبير ، للرازى ، و غُنْيَة اللبيب عند غيبة الطبيب ، لابن الأكفانى ، وكشف الرين فى أمراض العين ، لابن الأكفانى ، وكتاب إقليدس فى أصول الهندسة ، وكتاب فى الفراسة لشيخ الربوة ، واللباب فى الحساب ، لابن الأكفانى ، و مقدمة فى وضع الأوفاق ، وكتاب نُخَب الذخائر فى معرفة الجواهر ، لابن الأكفانى .

وأمّا كتب التاريخ ، والأدب ، ودواوين الشعر فقرأ منها ما لا يحصيه العد ، وفى الأجزاء المتبقية من التذكرة تلخيص لعدد من الكتب المطولة ، ورسائل صغيرة تدلّ على سعة اطلاعه ، وكثرة قراءاته ، وتنوع معارفه .

ويلخّص الصفدى ثقافة الأديب بقوله [١] : « وعلى الجملة فالكاتب يحتاج إلى كلّ شىء ، ولولا أنّه لا يلزمه تحقيق كلّ فن لقلت : إنّه الذى يعرف الوجود على ما هو عليه ، وهيهات » .

مكانته العلميّة

كان للصفدى مكانة علميّة سامية ، وعَرَف له قدره معاصروه ، ومَنْ بعدهم ؛ فقرأ عليه كثير من شيوخه ، وبعضهم نقل عنه ، وبعضهم أذن له فى إصلاح مؤلفاته ، وهى درجة من الثقّة هو لها أهل ، فمن ذلك :

* قال ابن سيّد الناس فى إجازته الصفدى : « ... وأذنت لك فى إصلاح ما تعْثُر عليه من الزلل ، والوهم ، والخلل الصادر عن غفلة اعترت النقل ، أو وهْلة اعترضت الفهم ، فيما صدر عن قريحتى القريحة ، من النثر والنظم ، وفيما تراه من استبدال لفظ بغيره ممّا لعله أنجى من المرهوب ، أو أنجع فى نيل المطلوب ، أو أجرى فى سنن الفصاحة على الأسلوب ، وقد أجزت لك إجازة خاصة ، يرى جوازها بعض من لا يرى جواز الإجازة العامّة » [٢] .

* والذهبى نقل عنه أشياء فى كتابه تاريخ النبلاء [٣] .

---

(١) نصرة الثائر ٦٥ .

(٢) أعيان العصر ٥ / ٢١٢ .

(٣) أعيان العصر ٤ / ٢٩٠ .

* علق الصفدى على كتاب الحيوان للجاحظ ، قال : من وقف على كتابه هذا - وغالب تصانيفه - ورأى فيها الاستطرادات التى يستطردها ، والانتقالات التى ينتقل إليها ، والجهالات التى يعترض بها فى غضون كلامه بأدنى ملابسة علم ما يلزم الأديب ، وما يتعيَّن عليه من مشاركة المعارف .

ويعلق حاجى خليفة على هذه الملاحظة بقوله : ما ذكره الصفدى من إسناد الجهالات إليه صحيح ، واقع فيما يرجع إلى الأمور الطبيعية ، فإنَّ الجاحظ من شيوخ الفصاحة ، والبلاغة لا من أهل هذا الفن [١] .

* واقرأ رأى الصفدى فى عِلْم سليمان بن داود ، رئيس الأطباء بدمشق ، قال : « وأنا اجتمعت به بدمشق ، والديار المصريّة ، غير مرّة ، فوجدته رجلا خبيرا بالعلاج ، لا على القواعد ، بل أخذ ذلك بسعْدٍ يرشده له ، وفطنة تؤدّيه إليه ، ولم أجده يعرف شيئا من الحكمة [٢] .

ويبدو أنّ معرفته بالطب لم تكن مجرّد هواية ، يرضى بها رغبة فى نفسه ؛ بل كانت نتيجة دراسة علميّة جادّة ، وتأمّل عميق ، وبعد نظر ، فقد وصف طاعون دمشق ، فى سنة ٧٤٩ هـ ، فى أكثر من عشر مقاطيع منها :

وقلت - وكان يقتل بطلوع بثرة خلف الأذن - :

تَعَجَّبْتُ مِنْ طَاعُونِ جِلِّقَ إِذْ غَدَا ... وَمَا فَاتَتِ الآذَانَ وقْعَةُ طَعْنِهِ
فَكَمْ مُؤْمِنٍ تَلْقَاهُ أَذْعَنَ طَائِعًا ... عَلَى أَنَّهُ قَدْ مَاتَ مِنْ خَلْفِ أُذْنِهِ

وقلت - وكان يقتل بطلوع خيارة فى الأُرْبِيَّة - [٣] :

ثَلَّ هَذَا الطَّاعُونُ عَرْشَ دِمَشْقِ ... بِقَضَاءٍ مِنْ رَبِّنَا سُبْحَانَهْ
فَلَكَمْ مَاتَ بِالْخِيَارَةِ شَخْصٌ ... كَانَ يَبْدُو كَأَنَّهُ رَيْحَانَهْ

وقلت - وقد كان يقتل بأنْ يبصق الإنسان دما - :

يَا رَحْمَتَا لِدِمَشْقَ مِنْ طَاعُونِهَا ... فَالْكُلُّ مُغْتَبِقٌ بِهِ وَمُصْطَبِحْ

---

(١) انظر : كشف الظنون ١ / ٦٩٦ ، وفيه عبارة الصفدى .

(٢) أعيان العصر ٢ / ٤٤٢ .

(٣) الأُرْبِيَّة : أصل الفخذ - اللسان « أرب » ١ / ٢١١ .

كَمْ هَالِكٍ نَفَثَ الدِّمَا مِنْ حَلْقِهِ أَوَ مَا تَرَاهُ بِغَيْرِ سِكِّينٍ ذُبِحْ ؟

يعلّق الدكتور داود جلبى على هذه الأبيات بقوله [١] :

« انظر أيُّها القارئ إلى هذا الأديب تر عجبا من تتبعه حوادث الطاعون ، وأشكاله ، وظواهره ، فكأنّه طبيب يصف أعراض المرض ، فى نوعيه : الخيارى ، والرئوى ؛ ويذكر كون الخيارة تطلع فى الأربية ، أو تحت الإبط ، أو خلف الأذن ، وكون الرئوى يصحبه نفث الدم .

أقول : وكلمة « خيارة » كنت قد اخترتها مقابل BUBON الإفرنجية ، فسررت لمّا رأيت الصفدى يؤيد هذه التسمية ، واستعماله إيّاها ، من قبل مئات السنين ، فعلى الأطباء ألا يجهدوا أنفسهم فى التفتيش على كلمة أخرى » .

ويبدو أنّ الإغراق فى التأمل ، والانشغال بالفكر يلهيانه عن نفسه ، ويذهلانه عن ذاته ، فقد أذهله التفكير فى حلّ لغز عن قضاء الحاجة [٢] .

ومما يدلّ على مكانته السامية فى العلم أثره فيمن بعده من الأدباء والمؤرخين ، وسأشير إليهم فى الفصول التالية .

ولم تكن هذه المنزلة الرفيعة التى بلغها فى العلم ، لتصيبه بالغرور ، وتملأ جوانبه بالزهو ، وتغيّر من خلقه السهل ، وطبعه السمح ، فهو شديد التواضع ، مذعن للحق ، واقرأ هذه العبارة :

كان محمد بن جنكلى يشارك الصفدى فى بعض سماعاته ، وسمع بقراءته على الشيخ أبى الفتح ، وردّ عليه يوما بعض الأسماء صحّفها الصفدى ذهولا منه ، فلمّا فرغ من قراءته أنشد [٣] :

يَـرُدُّ عَـلَـيْـنَـا مَـا نَـقُـولُ أَمِـيـرُنَـا لِقَلاًّ يَرَانَا فِى النُّهَى دُونَ حَدْسِهِ

وَيَخْتَارُ مِنَّا أَنْ نَكُونَ كَمِثْلِهِ « وَيَطْلُبُ عِنْدَ النَّاسِ مَاعِنْدَ نَفْسِهِ »

وكان الصفدى إذا تحدّث عن واحد من شيوخه قال [٤] :

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق م ٩ / ١٠٥ .

(٢) الأعيان ١ / ١٤٥ .

(٣) أعيان العصر ٤ / ٣٨١ .

(٤) راجع : أعيان العصر ١ / ٦١ ، و ١١٤ ، و١٣٩ ، و١٦٤ ، و ١٦٩ ، و٢٠١ .....

« قال شيخنا فلان »

وهو إلى جانب تواضعه وحلمه كان شديد الاعتزاز بنفسه ، عظيم الثقة بقدراته ، ويفخر بأنّه خالف الناس فى التوسّل إلى الآخرين ، ولا يرضى التذلُّل لهم ويخاطب ممدوحا له بقوله [١] :

أَرَدْتُ حِلْمَكَ يَبْدُو إِذْ كَانَ ذَنْبِىَ هَائِلْ
فَهَلْ رَأَيْتَ خِلافِى خَلَّى الذُّنُوبَ وَسَائِلْ ؟

الخصائص الأسلوبيّة فى نثر الصفدى

كتب الصفدى فى علوم اللغة ، والتاريخ ، والأدب ، وديوان الإنشاء ، وتنوّعت أساليبه باختلاف الفنون ، والأغراض ، وما يقتضيه مراعاة الأحوال ، ويمكن أنْ نميّز بين ثلاثة أنواع مختلفة من كتاباته النثرية ، وهى :

الأول : إذا كتب فى علوم اللغة ، والنحو ، والبلاغة طبّق خصائص الأسلوب العلمى : فاللفظ محدّود الدلالة ، والجملة بسيطة ، والمعنى واضح ، والتعريف مشروح من الوجهتين اللغوية والاصطلاحيّة ، يعرض الآراء عرضا أمينا ، ويوازن بينها ، ويعلّق عليها ، ويعلل لنتائجه ، ويرتب الأفكار ترتيبا منطقيا ، وتكاد تخلو عبارته من المحسنّات بنوعيها : اللفظى ، والمعنوى ، وتتجرّد من التأنق ، والموسيقا ، ويستطيع القارئ أنْ يقلّب صفحات : الغيث المسجّم ، أو تمام المتون ، أو فض الختام ، أو تصحيح التصحيف ، أو أىّ كتاب آخر من كتبه العلمية ليرى هذا الالتزام المنهجى ، ونجده فى مقدّمة الكتاب يذكر أسباب تأليفه له والخطة التى رسمها للبحث ، والموضوعات التى تناولها فيه ، وكثيرا ما يشير إلى مصادره التى اعتمدها ، وهو بذلك يكون قد طبّق أسس المنهج العلمى الحديث فى البحث ، من قبل أنْ تُعْرَف أصوله وتتضح مناهجه لنا ، وننسب الفضل فيه لعلماء الغرب ، من قبل أنْ تتوطّد علاقتنا بعلمائنا العرب ، ومناهجهم ، ولنضرب لذلك مثالا فى مقدّمة غوامض الصحاح تحدّث عن حروف الزيادة ، والإبدال والحذف ، ومواضع كل منها ، وكيفيّة التمييز بين أنواعها ، من ذلك قوله عن زيادة التاء [٢] :

---

(١) تمام المتون ٢٦٧ .

(٢) غوامض الصحاح ٥٥ .

« زيدت التاء فى أوّل الفعل المضارع ، وهو كثير واضح .

وزيدت فى آخر الفعل الماضى للدلالة على تأنيث فاعله .

وزيدت فى أوّل الاسم فى نحو : تَرْتُب ، ولا يخلو وزنه من أنْ يكون تَفْعُل ، أو فَعْلُل ، وفَعْلُل ليس فى كلام العرب ؛ لأنّه لا يوجد على وزن جَعْفُر ، فدلّ على أنّه تَفْعُل ، والّذى قال تُرْتَب - بضم التاء الأولى - فالتاء عنده زائدة ؛ لأنّ الحرف لا يكون أصلا فى بناء ، وزائدا فى بناء فى آخر ، وهما بمعنى واحد ؛ وأمّا من قال تُرْتَب - بضم الأولى ، وفتح الثانية - فلا يخلو وزنه من تُفْعَل ، أو فُعْلَل ، وعند سيبويه - رحمه الله تعالى - ليس فى الأصول فُعْلَل ، على مثال جُعْفَر ، فثبت أنّه تُفْعَل .... » .

وقد راعى الصفدى فى كتاباته التاريخيّة ، والبلاغيّة ، والنقديّة أسس الأسلوب العلمى أيضا ، وهذا مثال من نقده لابن زيدون فى رسالته الجدّية . قال : « ومن ذلك قوله [١] :

« وتأوَّلْتُ فى بيعة العقبة » لم ينقل أحد من علماء السّير أنَّ أحدا ممن بايع رسول الله ﷺ فى العقبة الأولى ، ولا الثانية ، ولا الثالثة من الأنصار ﷺ نكث بيعته ، أو تأوَّل فيها ؛ فإيراد هذه القرينة مع ما تقدّمها من الوقائع المشهورة غير لائق » .

وأسلوبه فى التراجم صاف ، جزل ، قلّ أنْ تجد فيه جملة مسجوعة ، وإنْ وجدت فليس من النوع المذموم ؛ بل هى عذبة ، كثيرة الماء ، قال عن ابن القَوْبَع [٢] : « لم أر له نظيرا فى مجموعه وإتقانه ، وتفنُّنِه ، واستحضاره ، واطلاعه ، كلَّ ما يعرفه يجيد فيه من أصول ، وحديث ، وفقه ، وأدب ، ولغة ، ونحو ، وعروض ، وأسماء رجال ، وتاريخ ، وشعر ، يحفظه للعرب ، والمولّدين ، والمتأخّرين ، وطب ، وحكمة ، ومعرفة الخطوط ، خصوصا خطوط المغاربة ، قد مهر فى ذلك ، وبرع ، وإذا تحدّث فى شىء من ذلك كلّه تكلّم على دقائق ذلك الفن ، وغوامضه ، ونكته ؛ حتّى يقول القائل : إنّما أفنى عمره هذا فى هذا الفن .. » .

---

(١) تمام المتون ٤٠٠ .

(٢) الوافى بالوفيات ١ / ٢٣٨ .

وقد وصف محمد كرد على كتابة الصفدى بأنّها « من أقعد أساليب الأدب فى عصره ، لا يلتزم السجع كثيرا » [١] ، ولا حجّة لما اعترض به محقق كتاب « فض الختام » على هذا الرأى زاعما أنّه « يلتزم فى الحقيقة السجع كثيرا ، وألوانا بديعيّة أخرى ، تطغى فى بعض إنشائه على المعنى » [٢] .

والثانى : إذا كتب فى الديوان جاءت رسائله مثقلة بكل أنواع القيود ، يلتزم فيها السجع التزاما ، ويتكلّف لها من أنواع البديع ما يجعلها سمجة ، مملّة ، وهو فى ذلك إنّما يجارى كتّاب عصره ، ويخاطبهم بما اعتادوا أنْ يقرءوه فى المراسلات الرسميّة من تقاليد - أى : أوامر التكليف - وإجازات ، ورسائل ، وتقاريظ وتواقيع ، وخطب ، ومراسيم ، ومناشير ... وهذا نموذج من مرسوم كتبه للأمير أرغون بتوليته نيابة بعلبك ، قال [٣] :

« أمّا بعد حمد الله الذى نصر هذا الدين بالسيف ، ورفع بولاة الأمور عن ضعيف الرعيّة ثقل الخَيْف ، والحَيْف ، وأَمَرَّ الحقَّ فى أهله بحسن نظرهم الذى ينتقى الزين ، وينتقد الزّيف ، وعمّر البلاد بعدلهم الذى إذا طلعت شموسه النيّرة كان الظلم معها سحائب صيف ، وقمع المفسد بمهابتهم التى منعت جفونه أنْ تجد رَجْعَة هَجْعَةٍ أو ضيْفَ طَيْف ... » .

والثالث : كتابته الأدبية ، ونجد فيها نوعين من الأساليب :

نوع يراعى فيه نظراءه من الكتّاب والأدباء ، ويجارى منافسيه من البلغاء والمترسّلين ؛ فيظهر براعته فى التفنن بالإنشاء ، ويتلاعب بالألفاظ ، ويستعرض قدراته فى البديع ، فتخلو عبارته من الرونق ، وتوشك أنْ تكون صورة معدّلة من كتابته الديوانيّة ، ويمثّل هذا النوع خطبة كتبه ، وهذا نموذج من مقدمة المنتقى من كتاب المجاراة والمجازاة ، قال [٤] :

---

(١) كنوز الأجداد ٣٦٤ .

(٢) مقدمة فض الختام ١٦ .

(٣) أعيان العصر ١ / ٤٦٣ .

(٤) المنتقى من كتاب المجازاة والمجاراة ، مخطوط مكتبة أحمد الثالث رقم ٢٦١٨ ظ / ١ .

« أمَّا بعد حمد الله على نعمه التى لا تجارى ولا تحازى ، وشكره على مننه التى لا تبارى ولا توازى ، وصلاته على سيّدنا محمد الذى أجار وأجاز ، وامتار من البلاغة ما امتاز ، وعلى آله وصحبه الذين كلّت لهم من متون المدائح الصدور والأعجاز ، وشادوا بنيان البيان الذى من قارب حماه فاز بالإعجاب والإعجاز ... » .

ونوع يتخلّص فيه من تلك القيود ، ويجرى فيه مع طبع الفنّان المرهف الحس ، ويساير السجيّة السمحة للكاتب المبدع ، فيأتى « بسحر البيان ، أو بيان السحر » [١] - كما يقول ابن معصوم [٢] ، ويمثّل هذا النوع : مقاماته ، ورسائله الإخوانيّة ، وتراجمه فى أعيان العصر خاصّة ، فمن ذلك ردّه على رسالة عتاب بعث بها إليه ابن غانم [٣] ، قال : « فلو كان كلُّ واردٍ مثله لَفُضِّل المشيب على الشَّباب ، ونزع المتصابى عن التَّستُّر بالخضاب ورُفِضَ السّواد ، ولو كان خالا على الوَجْنَة ، وعُدَّ المسك إذا ذُرَّ على الكافور هُجْنَة ، وأين سواد الدُّجا ، إذا سجى ، من بياض النّهار ، إذا انهار ؟ وأين وَجَنات الكواعب النّقيّة ، من الأصداغ المسوّدة بدخان العذار ؟ وأين نور الحق ، من ظلمة الباطل ..» .

والتزام السجع من العيوب التى وُصِمَ به أسلوب العصر بعامّة ، وأسلوب الصفدى ، بخاصّة ، ولكنّ الواجب والإنصاف يحتّمان وضع القضيّة فى إطارها الصحيح ، فليس كل سجع عيبا

فهو كما يقول أمير الشعراء أحمد شوقى [٤] : « شعر العربيّة الثانى وقوافٍ مُرِنَّةٍ ، رَيِّضَة خُصَّتْ بها الفصحى ، يستريح إليها الشاعر المطبوع ، ويرسل فيها الكاتب المتفنن خياله ، وقد ظَلَمَ العربيّة رجال قبّحوا السجع ، فعدُّوه عَيْبًا فيها ، وخلطوا الجميل المتفرّد بالقبيح المرذول منه ، يوضع عنوانا لكتاب ، أو دلالة على باب ، أوحشوا فى رسائل السياسة ، أو ثرثرة فى المقالات العلمية » ، وإلاّ فلو كان مذموما

---

(١) أنوار الربيع ١ / ١٢٨ .

(٢) على خان بن أحمد ، الحسينى ، المعروف بابن معصوم (١٠٥٢ - ١١١٩ هـ) أديب ، لغوى ، ناقد ، شاعر . انظر : الأعلام ٤ / ٢٥٨ ، ومعجم المؤلفين ٧ / ٢٨ .

(٣) أعيان العصر ٢ / ٨ .

(٤) مجلة المجمع العلمى العربى ، بدمشق م ٣٤ / ٧٦ .

لما ورد فى القرآن الكريم ، وكلام النبى ﷺ فالكثير من دعائه مسجوع [١] ، كما ورد فى كثير من مأثور الكلام عن السلف الصالح ﷺ ، وهذه الجذور الدينيّة تترك آثارها فى عقل المسلم ووجدانه ، ويجرى بها السجع على لسانه عفوًا أو قصدا ، فاستعمال السجع راجع - فى الغالب - إلى دوافع دينية ، أو لغويّة ، ويرى الدكتور شكرى فيصل أنّ نقطة الانطلاق كانت فى كثير من المرّات اللغة نفسها ، فالذين كتبوا السجع لم تكن تعيش فى أذهانهم فكرة معيّنة ، وإنّما كانت تعيش فى ذاكرتهم ثروة لغويّة خصبة [٢] .

ويكاد يجمع نقاد الأدب على أنّ المعيب من المحسنات اللفظية هو المتكلَّف ، المنافى للذوق ، والذى لايخدم المعنى ؛ وإنّما هو طلاء وزينة ، ويبدو لى أنّ طبيعة المجتمع المملوكى فى ذلك العصر كانت واحدة من بين الأسباب التى أدّت إلى الإكثار من البديع ؛ ذلك لأنّه عنى عناية خاصّة بالبناء ، والنقش ، والعمارة والفنون الزخرفيّة ، ولا بدّ أن تكون لها آثارها على الفن الكتابى .

ويمكننا أنْ نثبت الملاحظات الآتية على ما يميّز أسلوب الصفدى فى كتاباته النثريّة :

* يبدو أنَّ إعجاب الكاتب بالمتنبى ، وابن زيدون كان له أكبر الأثر فى أسلوبه :

فمن مظاهر إعجابه بالمتنبى استخدام الصيغ اللغوية والصرفية غير المعتادة فى الكلام ، والميل إلى الغموض ، والرغبة فى التعمية والإبهام ، فمن ذلك :

* وزن افتعل من « وقح » نادر الاستعمال ، كقوله : « فأضاء له ما اقتدح ، وضرب صفحا عن حاسده ؛ واتّقى لمَّا اتّقح » [٣] .

* اشتقاق الفعل « انهار » من الهور ، على وزن انفعل ، بمعنى اتسع ، ونهر ، واستنهر لم يسبق إليه [٤] .

---

(١) راجع : المثل السائر ١ / ٢٧١ ، وكشف الخفاء ١ / ٢٧٢ .

(٢) انظر : مجلة المجمع العلمى العربى ، بدمشق م ٣٤ / ٢ - ٨ .

(٣) لذة السمع ٨٧ .

(٤) صرف العين ٢٧٧ .

* قد يجمع اللفظ على غير قياس ، فقوله « عُشِيًّا : جمع أعشى » [١] غير مقيس ، فالمعروف أنّ عُشًا - على وزن دُجًا - جمع عاش ، حذفت منه الهاء ، وجمع الأعشى العشوّ .

* ربّما حمَّل الصيغة الصرفيّة معانى من وحى حسّه اللغوى ، ففى قوله تعالى : ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ﴾ [٢] قرأ الحسن البصرى عُشِيًّا - بالتصغير - [٣] ويرى الصفدى فى صيغة التصغير « تصنُّع البكاء ، والتظاهر به ؛ إذ لا حزن عندهم على الحقيقة [٤] .

ومما قد يبهم على القارئ قوله :

١ - رُوِى عن سَالم - راوى عاصم المقرئ ﷺ - أنَّه قال ..... يريد بسالم أبا بكر بن عيّاش [٥] وقد اختلف فى اسمه على ثلاثة عشر قولا ، أشهرها شعبة ، وقيل اسمه كنيته .

٢ - ويذكر الإمام الزمخشرى باسم : محمود الخوارزمى [٦] .

* قد يغيّر الرواية فى بيت ؛ ليثير قضيّة نحويّة ، يظهر فيها علمه وبراعته فى النحو والصرف والبلاغة والنقد .

---

(١) لذة السمع ١٠٦ ، وتراجع المسألة فى البحر المحيط ٥ / ٢٨٨ .

(٢) سورة يوسف ١٢ : ١٦ .

(٣) انظر : مختصر فى شواذ القرآن ٦٢ ، والكشاف ٢ / ٣٠٧ .

(٤) لذة السمع ١٠٦ .

(٥) لذة السمع ١١٠ وانظر فى ترجمة أبى بكر بن عيّاش (٩٥ - ١٩٣ هـ) غاية النهاية ١/٣٢٥ ، وحلية الأولياء ٧ / ٣٠٣ ، والأعلام ٣ / ١٦٥ .

وفى ترجمة عاصم بن بهدلة بن أبى النَّجود (ت ١٢٧ هـ) المعارف ٥٣٠ ، وتحفة الأبيه ١٠٦ ، والأعلام ٣ / ٢٤٨ .

(٦) أبو القاسم ، محمود بن عمر بن أحمد ، جار الله ، الزمخشرى ، الخوارزمى (٤٦٧ ٥٣٨هـ) إمام فى التفسير ، واللغة ، والنحو ، والأدب ، معتزلى المذهب ، وشاعر له ديوان شعر ، وله مؤلفات كثيرة .

انظر : الأنساب ٦ / ٢٩٧ ، وأزهار الرياض ٣ / ٢٨٢ ، والمستفاد من ذيل تاريخ بغداد ١٨ / ٢٢٩ ، وإنباه الرواة ٣ / ٢٦٥ ، والأعلام ٧ / ١٧٨ ، ومعجم المؤلفين ١٢ / ١٨٦ .

فمما غيّره ليظهر فيه براعته فى النحو قول الوأواء الدمشقى [١] .

أَيَا هَـذِهِ إِنَّ السَّحَابَ الَّذِى تَـرَىْ بَكَتْ لِبُكَائِى رَحْمَةً ، وَهْىَ لاَ تَدْرِى

يتحدّث الصفدى حديثا مطوّلا عن جواز حذف النون من الفعل المضارع المرفوع ، ويأتى بالشواهد [٢] وأصل الرواية فى الديوان :

« أَيَا هَذِهِ إِنَّ السَّحَابَ الَّتِى تَسْرِى » [٣] .

وقد يغيّر الرواية ليصح الاستشهاد بالبيت فى الموضع الذى يريده [٤] ، وقد اعترف هو نفسه بأنّه كثيرا ما يصلح فى شعر غيره [٥] .

ومن مظاهر إعجابه بابن زيدون [٦] :

* نثر الشعر ، أو حلّ النظم : وهو كثير فى إنشائه ، وأغلب جمله يمكن ردّها إلى أصولها الشعريّة ، فمن ذلك قوله [٧] :

---

(١) أبو الفرج ، محمد بن أحمد ، الغسّانى (ت ٣٨٥ هـ) شاعر . انظر : الوافى بالوفيات ٥٣/٢ ، والأعلام ٥ / ٣١٢ ، ومعجم المؤلفين ٨/ ٣٠٧ .

(٢) لذة السمع ٣٣٣ .

(٣) ديوانه ١١٣ .

(٤) راجع مثلا فى لذة السمع : ٩٧ ، ٢٥٠ ...

(٥) الوافى بالوفيات ٣ / ٧٢ .

(٦) راجع مقال أحمد الإسكندرى فى مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق م ١١ .

(٧) أعيان العصر ٣ / ٣٥٤ ، وفى العبارة نثر لبيتى بشار :

إِذَا مَا غَضِبْنَا غَضْبَةً مُضَرِيّةً هَتَكْنَا حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ تَقْطُرَ الدِّمَا

إِذَا مَا أَعَرْنَا سَيِّدًا مِنْ قَبِيلَةٍ ذُرَا مِنْبَرٍ صَلَّى عَلَيْنَا ، وَسَلَّمَا

والجملة الأخيرة من أبيات وجدها العزيز بالله الفاطمى مكتوبة فى رقعة على منبر الخطبة فى الجامع ، انظر شذرات الذهب ٣ / ١٢١ ، وآخر الأبيات هو :

أَوْ ، فَدَعِ الأَشْيَاءَ مَسْتُورَةً وَادْخُلْ بِنَا فِى النَّسَبِ الوَاسِعِ

وعبارة ابن زيدون فى رسالته الجدية التى تظهر نثره النظم قوله : « وغضضت عنى طرف حمايتك ؛ بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلى لك ، وسمع الأصم ثنائى عليك ، وأحسّ الجماد بإسنادى إليك ؛ فلا غرو ، قد يغصّ بالماء شاربه ...» .

راجع : تمام المتون ٤٢ .

« فإنَّهم سَادَةُ مَنْ فَاهَ أوتكلّم ، وأَشْرَفُ مَنْ تكرّم أو تحلّم ، وبقيّة قوم إذا غضبوا غضبة مضريّة قطر السيف دماءً وتثلّم ، وإذا أعاروا ذُرا المنابر سيّدًا صلّى عليهم وسلّم ، ولْيَأْمُرهم بالاتّضاع لمن دونهم فى المحافل والمجامع ، والانقياد فى الخير ، فإنَّ الناس يدخلون معهم فى النسب الواسع ...» .

* **التضمين** : فيأتى بجزء من آية ، أو حديث ، أو مثل ، أو بيت من الشعر ، وقد أصبح التضمين أشيع الظواهر الأدبية فى العصر المملوكى ، فمن ذلك قوله [١] : « فلا يُوَلِّ من يراه فقيها ﴿ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِى الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا ﴾ [٢] ولا من اتّصف بالجهل ورأى زينة المال والأهل ؛ بل يتحرّ فى أمورهم ويتّبع معاملتهم فى غيبتهم وحضورهم ، فأنت أدرى بما إليه الأمر يَئُول ، وكلُّكم راع وكلُّ راعٍ مسئول ...» [٣] .

ومثل قوله [٤] : « والسطور التى هى جداول الروض ، والهمزة فيها على ألفها حمامةٌ على قضيب :

وَفِى تَعَبٍ مَنْ يَحْسُدُ الشَّمْسَ ضَوْءَهَا
وَيَزْعُمُ أَنْ يَأْتِى لَهَا بِضَرِيبِ »

ومثل قوله [٥] : « وشتّان ما بين بكائهم وبكاء أبيهم ، ما النائحة بكِرَاها مثل الحزينة لقلبها ، وهيهات هَانَ على الأملس ما لاقى الدَّبِرُ » .

---

(١) أعيان العصر ٥ / ٦٠٢ . (٢) سورة البقرة ٢ : ٢٠٥ .

(٣) انظر الحديث الشريف فى الجامع الصغير ٢ / ٩٥ .

(٤) أعيان العصر ٣ / ٥١٠ ، وفى العبارة تضمين بيت من شعر المتنبى . انظر ديوانه ٣١٧ ، والرواية فيه : » .. يحسد الشمس نورها ه ويجهد أنْ ...« .

(٥) لذة السمع ١٠٦ ، وفى العبارة تضمين لمثلين ، راجع مجمع الأمثال ٢ / ١٩٦ ، و٤٦١/٢ .

وعبارات ابن زيدون التى فيها التضمين قوله : ولا أخلو من أنْ أكون بريئًا فأين العدل ؟ أو مسيئًا ، فأين الفضل ؟

إلاّ يَكُنْ ذَنْبٌ فَعَدْلُكَ وَاسِعٌ أَوْ كَانَ لِى ذَنْبٌ فَفَضْلُكَ أَوْسَعُ

حنانيك !! قد بلغ السَّيْلُ الزبى ، ونالنى ما حسبى به وكفى ، وما أرانى إلاّ لو أنّى أمرت بالسجود لآدم فأبيت واستكبرت ، وقال لى نوح : ﴿ ارْكَبْ مَعَنَا ﴾ فقلت : ﴿ سَآوِى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ الْمَاءِ ﴾ .

راجع تمام المتون ١٠٣ - ١١٩ .

* **التورية** : وأعنى بالتورية - هنا - أنْ تكون بالشعر ، أو بقصص القرآن الكريم ، أو أحداث التاريخ ، أو أسماء الأعلام وغيرها ، وهو ما سمّاه ابن أبى الإصبع [١] « العنوان » [٢] ، وعرّفه بقوله : « هو أنْ يأخذ المتكلّم فى غرض له من وصف ، أو فخر ، أو مدح ، أو هجاء ، أو عتاب ، أو غير ذلك ، ثم يأتى لقصد تكميله بألفاظ تكون عنوانا لأخبار متقدّمة ، وقصص سالفة » ، وضرب أمثلة كثيرة من شعر أبى نواس ، وأبى تمّام .

ومن ذلك قوله [٣] : « تتنوّع الإفادة فيها كما تنوّع الإعراب فى كَمْ عَمَّةٍ » .

ومثل قوله [٤] : « وأَعَدَّ للجدب من تيّاره سابغةً وعدَّاءً عَلَنْدَى » .

ومثل قوله [٥] : « وجلس فى حلقة دروسه ؛ وكأنّما تطلّع من محراب داود ويوسف ، يغرق المزنى فى وابل فضله الصّيب ويفوق عرف عرفانه على القاضى أبى الطيّب ..» .

ومثل قوله [٦] : « وفَخَرَ بأقلامه التى هى سُمْرُ الرِّمَاح كما فخرت بقوسها

---

(١) أبو محمد ، عبد العظيم بن عبد الواحد ، زكى الدين ، العدوانى البغدادى ، المصرى ، ابن أبى الإصبع (٥٩٥ - ٦٥٤ هـ) شاعر ، أديب ، مولده ، ووفاته بمصر . انظر : ذيل مرآة الزمان ١ / ٢١ ، والنجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة ٣١٨ ، وعيون التواريخ ٢٠ / ٩٥ ، والأعلام ٤ / ٣٠ ، ومعجم المؤلفين ٥ / ٢٦٥ .

(٢) تحرير التحبير ٥٥٣ .

(٣) الوافى بالوفيات ١ / ٩ ، وفى العبارة تورية بقول الفرزدق :

كَمْ عَمَّةٌ لَكَ يَا جَرِيرُ وَخَالَةٌ فَدْعَاءُ قَدْ حَلَبَتْ عَلَىَّ عِشَارِى

فيجوز فى عمّة الرفع والنصب والجر ، راجع شرح ابن عقيل ١ / ٢٢٦ .

(٤) أعيان العصر ٤ / ٣٣٠ ، وفى العبارة تورية بقول عمرو بن معديكرب :

أَعْدَدْتُ لِلْحَدَثَانِ سَا بِغَةً ، وَعَدَّاءً عَلَنْدَى

والعَلَنْدَى : البعير الضخم الطويل . انظر : اللسان ٣ / ٣٠٢ .

(٥) أعيان العصر ٥ / ٦٠٠ ، وفى العبارة تورية من قصص القرآن (محراب داود ويوسف) وتورية باسم الإمام المزنى ، إسماعيل بن يحيى (ت ٢٦٤ هـ) وهو تلميذ الشافعى رحمه الله ، وبالقاضى أبى الطيب ، طاهر بن عبد الله (ت ٤٥٠ هـ) وهما من كبار فقهاء الشافعيّة .

(٦) أعيان العصر ٢ / ٦٦٤ ، وفى العبارة تورية بفخر تميم بقوسها ، وإشارة إلى الآية الكريمة : ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ [سورة الكهف ١٨ : ٩] .

تميم ، وتحفّظت الأموال فى دفاتره التى يوشّيها ؛ فأوت إلى الكهف والرقيم » .

ومثل قوله [١] : « لو عاصره ابن ماكولا كان له مشروبا ومأكولا ، وجعل هذا الأمر إليه موكولا ، أو الحاكم لقال : لأمْرُهُ دائم النفوذْ ، وكان إلى حرمه يعود ، وعليه يعوّل ، وبه يعوذْ .. » .

ومثل قوله [٢] : « الأصولى الذى لو تصدّى له السيف قطعه بالقول المصيب » .

* من عادة الصفدى مراعاة النظير ، وتوليد المعانى من الألفاظ التى ترد فى عباراته ، يقول [٣] : « لو رآه ابن مالك كان له عبدا أو ابن الحاجب لَفَدَّاهُ بعينه نَقْدًا » ، ويقول [٤] : « النحوى الذى لو رآه الفارسى ترجّل له إعظاما » ، ويقول [٥] : « لو عاصره الْمُزَنى لعُدَّ قطرة من بحره ، أو ابن سريج لما علا فى الذكر صهوة ظهره » .

* لا يراعى - أحيانا - الدِّقة فى الاستعمال اللغوى لبعض الكلمات ، فقوله [٦] : « شهادة من طفا بها يقينه وطفح » ، فالطفو بمعنى الزيادة استعمال عامّى .

وقوله [٧] : « شبّهوه بالأنهار الجارية ، والغدران الطاغية » ، فالغدير قليل الماء ؛ فوَصْفُ مياهه بالطغيان فيه تجوّز كبير .

---

(١) أعيان العصر ٥ / ٦٤٦ ، وفى العبارة تورية بالحافظ ابن ماكولا ، وبالحاكم النيسابورى ، ومن توريات ابن زيدون قوله : « وعكفت على العجل ، واعتديت فى السبت ... ونفرت إلى العير بيدر ... ورويّت رمحى من كتيبة خالد ، ومزّقت الأديم الذى باركت يد الله عليه ، وضحّيت بالأشمط الذى عنوان السجود به ، وبذلت لقطام .. » انظر : تمام المتون ٢٣ ، وشرح العبارة بعدها فى صفحات متفرقة .

(٢) أعيان العصر ١ / ٢٠٥ ، وفى العبارة تورية بالسيف الآمدى ، وهو على بن محمد بن سالم (٥٥١ - ٦٣١ هـ) أصولى منطقى . انظر : الأعلام ٤ / ٣٣٢ ومعجم المؤلفين ٧ / ١٥٥ .

(٣) أعيان العصر ١ / ٢٠٢ .

(٤) نفسه ١ / ٢٠٤ .

(٥) نفسه ١ / ٣٢٥ .

(٦) لذة السمع ٨٧ .

(٧) نفسه ٩٠ .

* الجمل فى كتابته طويلة جدًّا ، وفى كثير من الأحيان يقسّمها إلى مقاطع ؛ ليستوفى المعنى ؛ ولتنتهى بالسجعة المطلوبة [١] .

* تمثّل كتاباته التاريخية أسلوب العصر خير تمثيل ، فقد تجد بعض الألفاظ العاميّة ، وأكثر تلك الكلمات يصعب ، اليوم فهم معناها إلاّ بعد الرجوع إلى المعاجم المختصّة فى لغة ذلك العصر ، وهى فى معظمها كلمات غير عربية ، انحدرت إلى لغتنا من لهجات متعددة ، وافدة ، بحسب جنسيّات المماليك الذين يُجْلَبُون إلى البلاد ، وتتجلى تلك الكلمات فى :

رتب الأمراء العسكرية ، والوظائف الإدارية ، وألقاب الأشراف ، وطبقات الناس ، وأثاث البيت ، وأدواته ، وأنواع الأطعمة والأشربة ، وأصناف الثياب ، وآلات الحرب ووسائلها .. وغير ذلك من الأمور المتعلّقة بالحياة اليومية ، مما أوجد صراعا بين العاميّة والفصحى ؛ عَزا إليه بعض الباحثين السبب فى ظهور الأزجال ، وأكثر الفنون الأدبية الشعبية الأخرى [٢] .

* غالبا ما يفصل بين الشرط وجوابه ، وقد يصل الفاصل فى بعض الأحيان صفحات كاملة ، جاء فى مقدمة الوافى بالوفيات قوله [٣] : « فلمّا كانت هذه الأمة المرحومة .... فأحببت أنْ أجمع من تراجم الأعيان » ، وفى مقدمة لذة السمع قال [٤] :

« فإنّى لمّا رأيت الشعراء قد أطنبوا فى ذكر الدمع .... فأحببت أنْ أجمع فى ذلك » .

ونلاحظ على هذا التركيب أمران :

الأول : زيادة الفاء فى جواب الشرط فى غير المواضع التى توجب زيادتها ؛ ويبدو لى أنّ الفاء – هنا – ضروريَّة للربط بين طرفى الجملة المتباعدين ، ولا أذكر إنْ كان النحويّون قد نصُّوا على ذلك أو لا .

---

(١) انظر مثلا : خطبة الوافى بالوفيات .

(٢) المدخل إلى دراسة البلاغة العربية ١٤٤ .

(٣) الوافى بالوفيات ١ / ٣ – ٥ .

(٤) لذة السمع ٨٨ – ١١٦ .

الثانى : يستعمل الصفدى « لمَّا » كثيرا - ظرفا ، وشرطا - ولا يكاد يستعمل غيرها من أدوات الشرط .

منهج الصفدى فى التأليف

من استقراء كتب الصفدى المتوفّرة بين أيدينا ، نلاحظ أنّه يقسّم الكتاب إلى قسمين :

القسم الأول : وفيه خطبة الكتاب ، والمقدّمات .

يبيّن فى خطبة الكتاب : موضوعه ، وأسباب اختياره ، وغالبا ما يشير إلى من سبقه من العلماء بالتأليف فيه ، وأهم مصادره التى اعتمدها ، ويثير فى القارئ الرغبة فى قراءته .

وفى المقدّمات يحرص على تناول موضوع الكتاب من الجوانب :

* الدينية : القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، وعلومهما .
* واللغوية : الاشتقاق الكبير ، والنحو ، والصرف .
* والأدبية : من شعر ، ونثر ، وتاريخ ، وطُرَف .
* والعلمية : طب ، وتشريح ، وعلوم الطبيعة ، والأحياء .

القسم الثانى : النتيجة ، وهى الغرض من تأليف الكتاب ، وعادة تخضع لنوع من التنسيق ، اختاره له مؤلفه :

فإنْ كان الكتاب فى التاريخ رتّبه بحسب السنين .

ومن هذا النوع : تاريخه المرتّب على السنين ، وأمراء دمشق فى الإسلام ، وشرحه تحفة الأمراء .

وإنْ كان الكتاب فى التراجم رتّب الأعلام ألفبائيا .

ومن هذا النوع : أعيان العصر ، والشعور بالعور ، ونكت الهميان والوافى بالوفيات .

وإنْ كان فى اللغة رتّب مواده ألفبائيا .

ومن هذا النوع : تصحيح التصحيف ، وغوامض الصحاح ، ونفوذ السهم .

وإنْ كان في البلاغة أورد شعره فى الفن البلاغى مرتبا على القوافى .

ومن هذا النوع كتبه : فض الختام ، وجنان الجناس ، وكشف السر المبهم ، والهول المعجب .

وإنْ كان فى الأدب قسّمها إلى أبواب ، وخص كل باب بموضوع من موضوعات الدراسة ، أو رتّب الشواهد الشعريّة ألفبائيا .

ومن هذا النوع : لذة السمع ، وصرف العين .

وإنْ كان شرحا لرسالة ، أونقدا لكتاب ، تتبّع النص جملة جملة أو بيتا بيتا ، أو رأيا رأيا .

ومن هذا النوع : تمام المتون ، وغيث الأدب ، ونصرة الثائر .

من هذا العرض يتّضح التزام الصفدى بمنهج علمى واضح المعالم والسّمات ، ممهّد السبل والوسائل .

* * *

obeikandl.com

الفصل الأول
الصفدي المؤرخ

obeikandl.com

obeikandl.com

لعلّ شهرة الصفدى كمؤرخ تسبق شهرته كشاعر وأديب ؛ وذلك لأنّ كتبه التاريخيّة كانت من أوائل الكتب التى عُنِىَ بها المستشرقون ، فطبعت أجزاء منها ، وترجم بعضها ، وبخاصة مقدمة كتابه العظيم « الوافى بالوفيات » ، ونلاحظ أنّ كتبه التاريخية قسمان :

أ - كتب يراعى فيها التسلسل التاريخى ، وهى :

أمراء دمشق فى الإسلام ، وتاريخ صلاح الدين الصفدى ، وتحفة ذوى الألباب .

ب - وكتب التراجم ، وهى :

أعيان العصر وأعوان النصر ، والشعور بالعور ، ونكت الهميان فى نكت العميان ، والوافى بالوفيات .

وفى الصفحات التالية أشير إلى ما اشتملت عليه هذه الكتب وما للصفدى فيها من ابتكار وتجديد .

أولاً : كتب الصفدى المرتبة على السنين

تاريخ صلاح الدين الصفدى

وهو تاريخ مرتب على السنين ، يذكر فيه الأحداث السياسية ، وفى نهايتها تراجم الأعلام الذين ماتوا فى تلك السنة ، على نسق كتب التاريخ المعتادة فى عصره ، قال عنه طاشكبرى زادة : « وهو بخطه أكثر من خمسين مجلدا » [١] .

* ويبدو أنّه كان من أهم مصادر ابن إياس فى « بدائع الزهور » كما كان بالنسبة للطبّاخ فى كتابه « إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء » .

* والراجح أنّ الكتاب يضمّ تفاصيل عن الأحداث لا توجد فى غيره من كتب التاريخ المتوفّرة لدينا الآن ؛ قال الطبّاخ فى مقال له عن المدرسة المستنصريَّة [٢] : وقد كنت ظفرت بذلك فى جزء من تاريخ العلامة الصلاح الصفدى المرتب على

---

(١) راجع صفحة ٢٢٩ ، وما بعدها .

(٢) مجلة المجمع العلمى العربى ، المجلد ٤ / ٤١ .

السنين ، ولم أجد هذه التفاصيل فيما تصفّحته من كتب التاريخ ، فى غير هذا الكتاب ؛ فأحببت أن أتحف مجلة المجمع العلمى بما كتبه ذلك المؤرخ ؛ لأنَّ ذلك، ولا ريب ، مما يهم الباحثين عن آثار الشرق والحضارة الإسلامية ، فى العصور الغابرة .

* الموجود منه « الجزء الرابع » كتب على طُرّته :

الجزء الرابع من تاريخ مالك زمام الأدب الإمام الصلاح الصفدى - رحمه الله تعالى - ٦٩٦ - ٧٦٤ هـ / ١٢٩٦ - ١٢٦٣م .

وهو تاريخ مؤلف على السنين يبدأ هذا الجزء بسنة ٥٦٦ هـ ، وبلغ فيه مصنفه إلى سنة ٦٥٥ هـ .

أوله بعد البسملة : السنة السادسة والستون والخمسمائة ، فيها توفى علاء الدين خوارزم شاه ملك الهند .

آخره : ثم قصدته بنو إسرائيل ، واجتمع إليه جماعة من العرب ، ثم كان من أمره ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر من توفى فى هذه السنة من الأعيان . تم الجزء عبد الله ... فى الجزء الذى بعده ، فيها توفى أحمد بن مكى .

كتبت بخط نسخ جيد ، وعناوين بدْء السنة بالمداد الأحمر ، وذكر فى حاشيته أنَّه قوبل سنة ٨٢٦ هـ [1] .

ولمّا كان هذا الجزء من الكتاب يعتمد فيه الصفدى كتب التاريخ السابقة على عصره ، أو التى نقل عنها معاصروه ، فليس له فيها من فضل إلاّ الانتقاء ، والاختيار ، أو التلخيص ، أو النقل بالنص من المصدر ، والصفدى حريص على الأمانة العلمية ؛ فهو - فى الغالب - ينصّ على مصدر نقله ، ويحمّله مسئوليّة ما يتضمنه من الأحداث ، ويبدى وجهة نظره فيها ، ناقدا لها .

وأمّا التراجم فسوف أتحدث عن منهجه فيها بالتفصيل فى القسم الثانى من كتبه التاريخية .

---

(١) والمخطوط فى ١٦٦ ورقة ، المسطرة ٢٥ ، الأحمدية رقم ١٢١٦ / تاريخ .

أمراء دمشق ، وتحفة ذوى الألباب

وهما أرجوزة ، وشرح لها وأقدّم - هنا - ملخّصا وافيا عن الكتابين [١] ؛ فهما موجز لتاريخ دمشق السياسى ، ترجم فيه لكل مَنْ حَكَمَ دمشق منذ الفتح الإسلامى فى عهد الخلفاء الراشدين ، وحكمها من بعدهم الأمويّون ، والعباسيّون ، والطولونيّون ، والفاطميّون ، والقرامطة ، والحمدانيّون ، والسلاجقة ، والنوريّون ، والأيوبيّون ، والمماليك حتى نهاية عام ٧٦٠ هـ .

لم يكن الصفدى أول من ألّف فى ولاة دمشق بل سبقه الرازى [٢] الذى كتب عن أمراء دمشق فى عهد العباسيين ، وابن عساكر [٣] ، الذى ترجم لبعض الولاة فى تاريخه الكبير ، ولكن كتابى الصفدى فريدان فى بابهما ؛ إذ لا يوجد مصنّف ترجم جميع من حكم دمشق على مرّ العصور غير هذين الكتابين ، فهما قد يغنيان عن غيرهما ؛ ولا يغنى عنهما غيرهما ، ومما يزيد فى قيمة الكتابين ، ويعلى من قدرهما ما يأتى :

* تعامل الصفدى مع التاريخ تعامل أديب فنّان ، فهو ذو عين فاحصة ، وبصيرة نافذة ؛ لذلك يرسم لنا صورة معبّرة حيّة ناطقة عن حياة الأفراد الاجتماعية ، وأنماطها السلوكيّة ، مع وصف دقيق لنظمهم المعيشية فى المأكل والمشرب والملبس ، وعلائقهم الأسرية ، وما يربطهم من صلاتٍ بأصحابهم ، وخَدَمِهم ، وقادتهم وما يملأ قلوبهم من عواطف الخير والمحبة ، أو نوازع الفتنة والشر .

* المؤلف مؤرخ ثقة ، وشاهد عِيَان لبعض الأحداث التى سردها وفى الوقت نفسه أتاحت له مناصبه الرسميّة ومكانته الاجتماعية الاطلاع على كثير من الأسرار التى قد لا يطّلع عليها الآخرون .

* يضم الكتابان ثبتا ضخما بالأحاديث ، والآثار المرويّة عن مكانة الشام ،

---

(١) راجع : مقدمة تحفة ذوى الألباب ٧ - ١٧ .

(٢) أبو الحسين ، محمد بن عبد الله بن جعفر ، عرف بابن الرستاق ، الدمشقى (ت ٣٤٧ هـ) له مصنف فى أخبار الشافعى . انظر : شذرات الذهب ٢ / ٣٧٦ ، ومعجم المؤلفين ١٠ / ٢٠٧ .

(٣) أبو القاسم ، على بن الحسن بن هبة الله ، ثقة الدين ، الدمشقى (٤٩٩ - ٥٧١ هـ) مؤرخ ، حافظ ، أشهر كتبه تاريخ دمشق الكبير . انظر : الأعلام ٤ / ٢٧٣ ، ومعجم المؤلفين ٧ / ٦٩ .

ودمشق ، وما فيهما من مقدسّات : مسرى النبوة ، وأرض المحشر ، وموطن بيت المقدس ، وما فيهما من قبور الأنبياء والصالحين ، وهى أرض مباركة ، نُهِىَ عن سبّ أهلها ...

* يضم الكتابان أشعارا كثيرة فى وصف دمشق ، ومتنزهاتها لكثير من الشعراء ، وللصفدى نفسه ، قد لا نجدها مجتمعة فى كتاب واحد ، وفيه - أيضا - نظم كثير له ، ولغيره فى مدح عظماء الرجال ؛ مما يظهر اتجاهاته الفكرية والنفسية ، ولا ينسى - كعادته - أنْ يذكر الشعر المنسوب للمترجم ، إن كان له شعر ، ويضمّن رواياته النكت التاريخية ، والطرف البديعة .

* اعتمد الصفدى مصادر كثيرة أشار إلى بعضها ، ولم يشر إلى بعضها الآخر ، وقد تكون مفقودة مما يجعل لأحداث هذين الكتابين أهميّة كبيرة .

* اهتم المؤرخون بهما فمنهم من نقل عنهما كابن إياس ، وابن حجر ، والمقريزى ، ومنهم من ذيّل عليهما كابن طولون [١] ، الذى كتب « إعلام الورى بمن ولى نائبا بدمشق الكبرى » ، ذكر فيه ولاة دمشق أيام المماليك ، وأول العهد العثمانى ، ثم ابن جمعة المقّار [٢] فألّف فى الوزراء الذين حكموا دمشق .

بدأ الصفدى أرجوزته بقوله :

الْحَمْدُ للهِ الْقَدِيمِ الدَّائِمِ ... مُقَدِّرِ الْمَوْتِ عَلَى ابْنِ آدَمِ

فِى مُلْكِهِ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ... مَا لامْرِئٍ عَمَّا قَضَى مَحِيدُ

ويمتاز شعره فيها بالصفاء ، والوضوح ، والبعد عن التكلف ، وجمال العرض ، ثم يعود إليها بيتا بيتا فيشرح دلالته التاريخية .

وأمّا التراجم فى الكتابين فتخضع للأسس العامة فى منهج الصفدى ، وسوف يأتى تفصيل ذلك .

---

(١) محمد بن على بن أحمد ، شمس الدين (٨٨٠ - ٩٥٣ هـ) مؤرخ ، فقيه انظر : مجلة المعهد العلمى العربى بدمشق م / ٢٨ / ٤٩٢ ، والأعلام ٦ / ٢٩١ ومعجم المؤلفين ١١ / ٥١ .

(٢) محمد بن جمعة المقار الحنفى (بعد ١١٥٦ هـ) مؤرخ ، أديب له الباشات والقضاة بدمشق زمن السلطان سليم خان .

انظر : معجم المؤلفين ٩ / ١٦٠ ، مجلة المجمع ٢٩ / ١٢٣

ثانيا : كتب التراجم

الوافى بالوفيات

وهو تاريخه الكبير ، وأوسع كتب التراجم شهرة ، وأكثرها شمولا ، جمع فيه [١] « تراجم الأعيان من هذه الأمّة الوسط ، وكَمَلَة هذه الملّة التى مدّ الله تعالى لها الفضل الأوفى وبسط ، ونجباء الزمان وأمجاده ، ورأس كل فضل وأعضاده ، وأساطين كل علم وأوتاده ، وأبطال كل ملحمة ، وشجعان كل حرب ، وفرسان كل معرك ، لا يسلمون من الطعن ، ولا يخرجون عن الضرب ، ممن وقع عليه اختيار تتبُّعى واختبارى ، ولزّنى إليه اضطرام تطلُّبى واضطرارى ، ما يكون متّسقا فى هذا التأليف دُرُّه ، منتشقا من روض هذا التصنيف زهره ، فلا أغادر أحدا من الخلفاء الراشدين ، وأعيان الصحابة والتابعين ، والملوك ، والأمراء ، والقضاة ، والعمّال ، والوزراء ، والقُرّاء ، والمحدّثين ، والفقهاء ، والمشائخ ، والصلحاء ، وأرباب العرفان ، والأولياء ، والنحاة ، والأدباء ، والكتاب ، والشعراء ، والأطباء ، والحكماء والألبّاء ، والعقلاء ، وأصحاب النِّحَل والبدع والآراء ، وأعيان كل فنّ اشتهر ممن أتقنه من الفضلاء ، من كل نجيبٍ مجيد ، ولبيب مفيد ... » .

وترجع أهميّة الكتاب إلى ما يأتى :

أولا : غزارة مادّته ، فهو يضم أكثر من أربعة عشر ألف ترجمة ، كثير منها لا يُعْرف لها ، حتى الآن مصدر آخر غيره [٢] .

ثانيا : مقدمته المتميّزة ، فنحن لا نعرف مؤرخا - قبل الصفدى - قدّم لكتابه بمثل هذه المقدّمات المفيدة ، الممتعة ، وفى رأيى أنّها كانت النواة التى بنى عليها ابن خلدون مقدمته ؛ أو فى القليل هى التى أوحت إليه بتوسيع معلوماتها ، وتقعيد مبادئها .

ثالثا : فى تراجم المعاصرين للمؤلف يرسم - من خلالها - صورة للمجتمع

---

(١) الوافى بالوفيات ١ / ٥ .

(٢) انظر : كنوز الأجداد ٣٨٠ .

الإسلامى فى العصور الوسطى بكل جوانبها النفسية والاجتماعية ، والمعيشية ، وعاداتها ، وتقاليدها ، وثقافاتها ، ونظمها ، ولهجاتها ؛ بل وفى مجونها ، وسخافاتها ، أيضا ، وهو ما لا نجده فى كتاب آخر .

رابعا : يضم الكتاب الكثير من النكت العلمية والأدبية فى التاريخ والنحو ، والبلاغة ، والفقه ، والتفسير ، والطب ، والحساب ، وغيرها من العلوم التى أتقنها الصفدى ، وهى مادة خصبة لدراسة ممتعة ، جديرة بالجمع والتبويب والتوثيق .

خامسا : فى الكتاب الكثير من الطرائف ، والفكاهة ، والألغاز والقصص تمثّل فى مجموعها متعة للنفس ، وتسلية للقارئ .

قسّم المؤلف كتابه - كعادته - إلى مقدمة ، وموضوع .

فالمقدمة فى خطبة ، وأحد عشر فصلا .

خطبة الكتاب : تناول فيها المعانى الآتية :

* سبب تأليفه له ، فقد جمع المؤرخون أخبار الأولين : الأنبياء ، والأحبار ، والصالحين ، والملوك ، والأمراء ، والوزراء ، والعلماء والعظماء ، ووجد النفس تستروح إلى مطالعة أخبار من تقدّم ، وتستفيد من تجاربهم ، وتملأها حزما وعزما ، « وصبرا يبعثه التأسّى بمن مضى ، واحتسابا يوجب الرضا بما مرّ وحلا من القضا ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [(١)] » [(٢)]

فأحبّ أنْ يجمع من تراجم الأعيان ما ينفع به المحدّث والأديب .

* بيّن تنسيقه وتبويبه ، فابتدأ بالسيرة النبويّة الشريفة ، وقدّم ثبتا بمصادره فيها ، وهى نوعان : المصادر المختصة بالسيرة ، وأول من كتب فيها ، وفى مناقب الرسول (وغزواته ، وأحاديثه وأصحابه ، وكتب التاريخ العام التى كانت السيرة النبوية جزءا من محتواها ، فأتى فى الترجمة النبويّة بما لا غنى عن عرفانه .

ثم سَرَدَ بعد السيرة من جاء بعده من المحمدين إلى عصره ثم ذكر باقى الأعلام

---

(١) سورة هود ١١ : ١٢٠ .

(٢) الوافى بالوفيات ١ / ٥ .

مرتبين من حرف الألف إلى الياء ، على توالى الحروف ، ويأتى فى كل حرف بمن جاء فيه من الآحاد ، والعشرات ، والمئين ، والألوف .

* بيَّن الخطة التى اختطّها لنفسه فى كتابة التاريخ ، وهى :

التلخيص غير المخل ، والأدب فى حق المترجم ، والتثبت من المعلومات ؛ فقال [١] : « بشرط أنْ لا أدع كُمَيْتَ القلم يمرح فى ميدان طِرْسِه إذا أجْرَرْتُه رَسَنَه ، ولا أكون إلاّ من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، ولا أغدو إلاّ ممن يلغى السيئة ويذكر الحسنة :

لا خَيْرَ فِى حَشْوِ الْكَلا مِ إذَا اهْتَدَيْتَ إلَى عُيُونِهْ

اللّهمّ إلاّ إنْ كان للقول مجال ، ومجاز ، ولم يُرْخَ دون الإطالة حِجَابٌ ، ولا حِجَازٌ ؛ فقد رأيت كثيرا ممن تصدّى لذلك أتى فى كتابه بفضول كثيرة » .

المقدمة : وفيها فصول .

الفصل الأول : بيّن فيه الأحداث والأشخاص الذين كانت العرب تؤرخ بهم ، كما كانت العرب تؤرخ بالنجوم ، وذكر الأحداث المعروفة فى تاريخ البشرية ، منذ خلق الله آدم عليه السلام ، ثم هبوطه إلى الأرض ، و كم عمّر فيها ، وذكر أبناءه ، إلى الطوفان ، وما بين الرسل من السنين ، وحرّر ذلك .

ثمّ بيّن أقدم التواريخ التى بأيدى الناس ، والفروق بين توقيت العرب بالليالى ، وتوقيت العجم بالأيام ، وما ينشأ عن ذلك من اختلاف الأوقات الموجبة للخراج ، والأشهر الحرم ، ومعنى النّسىء وكيفيّته ، وأسبابه ، وتحريمه .

الفصل الثانى : تناول فيه مادّة أرخ من حيث اللغة ، وقلب الهمزة واوا ، ثم بيّن قاعدة التأريخ عند أهل العربية فيؤنثون المذكر ويذكرون المؤنث على قاعدة العدد ، وأحكام التمييز ، وإضافته للعدد ، وتعريفه وتنكيره .

الفصل الثالث : فى كيفية كتابة التاريخ ، والفرق بين النون والتاء ، فالنون فى « خَلَوْن » للقليل ، والتاء فى « خَلَتْ » للكثير ، وكتابة كلمة شهر قبل الشهور

---

(١) الوافى ١ / ٨ .

المبدوءة بالراء ، وحذفها من غيرها وصفات الأشهر : المحرم شهر الله ، ورجب الفرد أو الأصم أو الأصب ... والتفريق بين « نيّف ، وبضع » .

الفصل الرابع : فى قاعدة النَّسَب ، وقواعده ، وأنواعه ، والنسب الشاذ والصيغ الدالة عليه .

الفصل الخامس : فى بيان العَلَم واللقب والكنية ، وكيفية ترتيب ذلك مع النسبة على اختلاف المتنوّع .

الفصل السادس : فى الهجاء ، وكيفية رسم الحروف ، والكلمات والحروف التى تزاد ، والحروف التى تحذف ، وهو فصل هام جدّا للمهتمين بقراءة المخطوطات ، وبخاصة فى تصحيح الأعلام ، ومعرفة العصر الذى كتبت فيه .

الفصل السابع : فى ترتيب كتب التاريخ بحسب السنين ، وهو الأليق بالتاريخ – من وجهة نظره – ، أو بحسب الحروف ، وهو الأليق بالتراجم ، والفرق بين ترتيب الحروف عند المشارقة ، وعند المغاربة ، وكيفية ضبط الحروف .

الفصل الثامن : فى أصل كلمة « وفاة » ، ومعنى « الأجل » ، والفرق بين الأجل الطبيعى ، والأجل الاخترامى ، ومناقشة دينية عن الأجل ؛ وهل هو واحد ، أو أكثر ؟ وهل يزيد وينقص ؟ .

الفصل التاسع : فى فوائد التاريخ ، وبيان زيف الوثائق التى تناقض أحداث التاريخ ، والتى قد يستغلّها بعض الناس لتحقيق مكاسب ماديّة ، أو إبطال حق .

الفصل العاشر : فى أدب المؤرخ ، وهو رسالة صغيرة لتقى الدين السبكى ، بيّن فيها ما يجب أنْ يتحلّى به المؤرخ من الصدق والأمانة ، وأنْ يتحرّى عند النقل المحافظة على اللفظ ، لا المعنى ، وأنْ يكون عارفا بأحوال من يترجمه ، وأن يذكر مصادره ، وأنْ يكون موضوعيا عادلا فى قوله فيقهر هواه ، ويسلك طريق الإنصاف ، وفرّق بين شروط مؤرخ التراجم ، والتاريخ العام .

الفصل الحادى عشر : فى ذكر شىء من أسماء كتب التاريخ المؤلفة لمن تقدّم من أرباب هذا الفن ، وقسّم تلك المصادر على البلاد ، فبدأ بتاريخ المشرق وبلاده ، فتاريخ مصر ، ثم المغرب وبلاده ، وتاريخ اليمن والحجاز ، والتواريخ الجامعة ، وتواريخ الخلفاء ، وتواريخ الملوك ، وتواريخ الوزراء والعمال ، وتواريخ

القضاة ، وتواريخ القرّاء ، وتواريخ العلماء ، وتواريخ الشعراء ، وأخيرا التواريخ المختلفة ، وتحت هذا العنوان ذكر تواريخ الأولياء والنسّاك ، وطبقات الصوفية والوعاظ والعباد ، وأخبار الصلحاء ، والأطباء والحكماء ، والمنجمين ، والخوارج ، والنحاة والمتكلمين ، والأوائل ، والمعتزلة ، والفهرست ، وأخبار الأدباء ، وختمها بكتب المحدثين فى معرفة الصحابة ﷺ ، وكتب الجرح والتعديل ، والأنساب ، ومعاجم المحدّثين ، ومشيخات الحفّاظ والرواة ، فذكر من كل ذلك أهم الكتب ، ومؤلفيها .

منهج الصفدى فى التراجم

تختلف تراجم الصفدى باختلاف مصدرها ، وهى فى الغالب ثلاثة مصادر : الكتب ، والرواية الشفهية ، والمعرفة المباشرة .

التراجم المنقولة من مصدر مكتوب

تختلف طولا ، وقصرا بحسب ما اختصره الصفدى منها ، أو تصرّف فيها ، وقد ينقلها نقلا كاملا ، بلا تغيير ، كما تختلف مادتها باختلاف مصدرها .

فمثلا فى التراجم المنقولة من تاريخ الإسلام للذهبى ، نجده يهتم بذكر شيوخ المترجم ، وتلاميذه ، ومروياته ، ولا يزيد عنه شيئا إلاّ إثبات شعر إنْ وجد له شعرا ، يبحث عنه فى مصدر آخر لأنّ الذهبى لم يكن حريصا على رواية الشعر ، فى الوقت الذى يبدى فيه الصفدى عناية كبيرة بالشعر ، فقد لايكون فى الترجمة شيء أكثر من الاسم وبيتين من الشعر [١] ، وفى أكثر الأحيان نجد الصفدى بعد أنْ يكمل الترجمة ، يقول : ومن شعره ...ثم لا يروى أبياتا ، لأنّه لم يجد له شعرا يذكره ؛ فيظل المكان خاليا ، وكأنّه على قناعة تامّة بمقدرة كلّ الناس على نظم الشعر ، أو كأنّ نظم الشعر من كمال الشخصية ، وتمام الظرف .

وإنْ كان نقل الصفدى من مصدر أدبى كالأغانى ، واليتيمة والدمية ، والخريدة ، والأنموذج كانت الترجمة مقتصرة على مكانة المترجم الأدبية ، وشيء

---

(١) انظر : الوافى بالوفيات ٢٢ / ١٥٧ .

من نظمه ، وقد يجدها فرصة مناسبة ؛ ليثبت مع الأبيات ما يناسبها من شعر له ، أو لغيره .

وإن كان النقل من أكثر من مصدر نصّ على ذلك ، ونسب كل نص إلى صاحبه [١] .

وربّما نقل ترجمة من مصدر ، ثمّ وجد الترجمة ذاتها فى مصدر آخر أكثر شمولا ، وأوسع استشهادا ؛ فيعيدها مرّة ثانية ، وينسب الترجمتين إلى مصدريهما [٢] .

ولعلّ أهم ما يميّز طريقة الصفدى فى التراجم : الانتقاء ، والتوثيق ؛ فكان اعتماده على المؤرخين الثقاة الذين سبقوه ، وتضم قائمة مصادره التاريخية - التى حاولت استخلاصها من كتابه الوافى بالوفيات - عددا كبيرا جدا من أمهّات المصادر التى هى عمدة المؤرخين فى كل العصور وعليها المعوّل فى الثقافة العربية [٣] .

التراجم المنقولة بالرواية الشفهية

كان يسأل عن الأعلام من رآهم وعرفهم معرفة موثّقة ، أو لهم بهم صلة ؛ فكثيرا ما كان يسأل أبا حيّان عن أعلام المغرب ، أو يسأل الأُدْفَوِى عن أعلام الصعيد ، أو يسأل الوافدين على الديوان عن الأعلام فى بغداد ، وغيرها من البلاد التى تبعد عن مكان إقامته ، ولم يرتحل إليها .

التراجم المنقولة بالمعرفة المباشرة

فى تراجم المعاصرين له ، كان يستقى معلوماته عنهم منهم مباشرة ، فيسألهم عن مولدهم ، وأحوالهم ، وشيوخهم ...

أو من مصادر رسمية اطّلع عليها بحكم منصبه فى الديوان ؛ ولذلك تضم

---

(١) راجع ترجمة أمين الدولة ، أبى الحسن بن غزال فى الوافى ١٢ / ١٠٤ .

(٢) راجع : ترجمة أبى محمد ، القاسم بن القاسم بن عمر ، الواسطى ، فقد نقلها أولا من الحديقة ، لأمية بن أبى الصلت ، الترجمة رقم (١٤٦ / أ) ، ثم أعادها نقلا عن معجم الأدباء ، الترجمة رقم (١٤٧) . انظر : الوافى بالوفيات ٢٤ / ١٤٨ ، ١٥٠ .

(٣) راجع بعضها فيما قرأه على شيوخه ، وفى الحديث عن ثقافته . وانظر : مقدمة تحفة ذوى الألباب ١ / ٨ ، والوافى بالوفيات ١٧ / ٧١٢ .

تراجمه عددا كبيرا من الوثائق التاريخية كالتواقيع والتقاليد ، والمناشير ، والمراسيم ، والفرمانات ، إلى جانب الوثائق الشخصية كالإجازات ، والرسائل ، والتقاريظ .

ونلاحظ فرقا جوهريًا بين تراجم المصدر الأول ، وتراجم المصدرين الآخرين ؛ ذلك لأنّ الصفدى يكتب التاريخ بنظرة فنّان ، شاعر ، أديب ، تلتقط عينه أدقّ التفاصيل ، ويعيش فى فكره الواعى ، وشعوره المتيقّظ مختلف الألوان والأشكال والصور والطعوم ، لا يغفل عن شىء مما يحيط به ، فى الأرض ، وفى السماء ، ويرسم صورة للمترجم تنطق بقسمات الوجه ، وطول القامة ، ولون العينين ، وما يختلج فى داخله من نوازع الخير والشر ، وأكثر ما تتجلى تلك التراجم فى أعيان العصر ، ولم أعرف أحدا غيره من المؤرخين عنى بكل هذه الجوانب المتميّزة للشخصية ، وفى ترجمة ابن بَصْخَان [١] يبدو الفرق جليًا بين الذهبى وتلميذه ، فبينما يحدثنا الذهبى عن شيوخه ، ووظائفه ، ويختم روايته بقوله : « وذهنه متوسط ، لا بأس به ، ثم وَلِىَ ، بلا طلب مشيخة التربة الصالحية ، بعد مجد الدين التونسى ، بحكم أنّه أَقْرَأ من بدمشق فى زمانه ... انتهى [٢] ، ثم يأتى دور الصفدى فى الترجمة [٣] : « قلت : وكان بَهِىّ المحيّا ، يَطْوِى السّكُونَ طيًا ، ظاهر الوقار ، بادى التّكبُّر على الناس والاحتقار ، نظيف اللّباس ، طيّب الرائحة فى الانطلاق والاحتباس ظريف العمامة ، كأنّه من بياض ثيابه حمامة ، له قُعْدُدٌ فى جلوسه ، وتسدُّدٌ فى ناموسه ، وكذا إذا مشى لا يلتفت ولو زحمه اللّيث والرَّشا ، وإذا كان فى حالة تصدّره للقراءة ، يتلبّس بالتّوقّر على التّوقُّر والأناة ، لا يتنحّم ، ولا يتلفّت ، لا يعير بصره وسمعه غير من يقرأ عليه ، إنْ عَطَسَ أو شَمَّتَ مشغولا بمن قد أمَّه قُدَّامه ، مجموع الحواس على القارئ الذى جعله إِمَامَهُ أَمَامَهُ :

---

(١) أبو عبد الله ، محمد بن أحمد ، بدر الدين ، ابن عين الدولة (٦٦٨ - ٧٤٣ هـ) شيخ القراء بدمشق ، شرح حرز الأمانى . انظر : معجم الشيوخ ٢ / ١٤٠ والوافى بالوفيات ٢ / ١٥٩ ، وأعيان العصر ٤ / ٢٨٢ ، ونكت الهميان ٢٣٩ ، ووفيات السلامى ١ / ١٧٨ ، والدرر الكامنة ٣ / ٣٠٩ ، وبغية الوعاة ١ / ٢٠ ومعجم المؤلفين ٨ / ٢٣٨ .

(٢) أعيان العصر ٤ / ٢٨٤ .

(٣) نفسه .

وَيَبْقَى عَلَى مَرِّ الْحَوَادِثِ صَبْرُهُ وَيَبْدُو كَمَا يَبْدُو الْفِرِنْدُ عَلَى الصَّقْلِ

...واشتهر عنه أنّه كان لا يأكل اللّحم إلاّ مصلوقا ، والحلاوة السُّكّريّة ، لا غير ، وقيل : إنّه لم يأكل المشمش فى عمره .

وكان له مِلْكٌ يرتفق بمصالحه ، ولم يتناول من الجهات درهما ، ولا طلب جهة كمال أهليّته .

وكان يدخل الحمّام وعلى رأسه قبع لِبّاد غليظ [١] ، إذا تغسّل رفعه ، وإذا أبطل قَلْبَ الماء أعاده ؛ فأفاده ذلك ضعفا فى بصره ، وكان طيّب النّغمة » .

ويقول عن ابن الرّسام [٢] : « وكان يكتب خطًّا جيّدًا إلى الغاية ، والغريب أنّه كان يكتب هذه الكتابة المليحة بيده اليسرى ولا يُحْسن يكتب باليمنى شيئا ... وكان يلثغ فى الجيم فيجعلها كافا ، يُشِمُّها شينا معجمة ، ولو أكل فُسْتقة عرق لهامن فرقه إلى قدمه ، وكان متديّنا ، قليل الشر ، حسن الوُدّ والصُّحْبة » [٣] .

ولو أردت تفصيل دقّة الفنان فى تصوير الشخصيات لنقلت كل تراجم معاصريه ، وأكتفى هنا بلمحات خاطفة ، وعلى من يريد المزيد الرجوع إلى المصدر المشار إليه فى الحاشية .

* « لا يحتمل أنَّ أحدا يعارضه ، أو يراسله ، أو يقارضه ، فينفر فيه ، ويَزْبُرُه ، ويكسره بالقول ، ولا يجبره .

وكان فى خلقه زعارة ، وشراسه ، وحدّة ، لا ينكّس الكبر لها راسه ، لا يخضع لأمير ولا لقاض ، ولا ينفعل لإبرام ، ولا لانتقاض .....وكان به وسواس فى تكبيرة الإحرام ، وتطويل حتى يفوته بالركوع الإمام » [٤] .

---

(١) القُبْع : غطاء للرأس ، انظر : العصر المماليكى ٤٦١ ، و.انظر :

Dozy , op. cit. V. II , p. 311.

Dozy , dictionnaire detaille des noms des vetements chez les arabes p. 344.

(٢) سبق التعريف به فى صفحة ٦٦ .

(٣) الوافى بالوفيات ٢٢ / ١٧٩ .

(٤) أعيان العصر ٣ / ٦٠٢ .

* « وربّما تحيّل عليه بعض الناس فيما يرومه منه ، بأنْ يستصحب معه شابّا حسن الصورة ، فإنّه كان يميل إلى ذلك ، مع عفاف وصون » [١] .

* « وكان شيخا طوالا ، ويجلس والقارورة مشدودة فى وسطه للبول » [٢] .

* « وحضر جنازته خلق كثيرة ، وكان يوما كثير المطر والوحل ودفن بتربة الشيخ أبى عمر » [٣] .

ولم يكن الوصف الفنى هو الفارق الوحيد بين أسلوب الذهبى فى الترجمة وأسلوب تلميذه ، فقد سبق القول بأنّ منهج الصفدى يقوم على الانتقاء ؛ فالذهبى [٤] قلما يذكر كنى الآباء كما فعل ابن الدبيثى وابن النجار ، فى تاريخيهما ، حيث ذكرا عددا من كنى الآباء فى نهاية الاسم ، والمنذرى كان يذكر الكنى قبل ذكر اسم الأب ، فضلا عن الصفات المادحة ، وانتقى الصفدى طريقته الخاصة به ؛ فيجمع بين الأسماء ، ويعيدها بالكنى والألقاب والصفات المادحة ، وفى تراجم الأشراف ، والصالحين خاصة كان الصفدى حريصا على ذكر الكنى والألقاب للآباء والأجداد ، حتى يصل بالنسب إلى الإمام على بن أبى طالب ﷺ أو القطب الصالح الذى ينتسب إليه المترجم ، قال فى ترجمة محمد ابن شِرْشِيق بن محمد بن عبد العزيز بن عبد القادر بن صالح بن دُوِشت بن يحيى الزاهد بن محمد بن داود بن موسى بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله المحسن ابن الحسن المثنى بن الحسن بن على بن أبى طالب ﷺ الشيخ الإمام العارف الكامل شمس الدين أبو المكارم بن الشيخ الإمام القدوة حسام الدين أبى الفضل بن الشيخ الإمام القدوة جمال الدين أبى عبد الله بن الشيخ الإمام علم الدين الزّهّاد شمس الدين أبى المعالى ابن الشيخ الإمام قطب العارفين أبى محمد الجيلى الحسنى الحنبلى المعروف بالحيالى » [٥] .

---

(١) الوافى بالوفيات ٢٢ / ٤٤٩ .

(٢) نفسه ٢٢ / ١٤٢ ، والأعيان ٣ / ٥١٥ ، وعنهما ينقل ابن حجر فى الدرر الكامنة ١١٩/٣ .

(٣) أعيان العصر ٤ / ٤٥٩ .

(٤) راجع : الذهبى ومنهجه فى كتابه تاريخ الإسلام ٣٦٢.

(٥) أعيان العصر ٤ / ٤٦٤ .

وكان الصفدى حريصا على أعراض الناس ، وعدم الخوض فيها ، ولا يتّهم أحدا فى عقيدته ، وكثيرا ما يعقّب على الروايات بقوله : « والله أعلم بسريرته ؛ فإنَّ الناس كانوا يتهمونه ..» (١) .

وفى الوقت الذى يكتب فيه التاريخ بنظرة الفنان ، لا يغفل الأمانة العلمية ، ومناقشة الآراء بموضوعيّة وذكاء ، فنراه يرفض مجازفات شمس الدين الجزرى فى تقدير ثروة سلاّر (٢) .

ويعلّق على مارواه صاحب العقد ، وغيره من حكاية المرأة التى تحسن معرفة العروض ، وأراد بعض الناس العبث بها ، فقال :

« والذى أعتقده أنّها موضوعة » (٣) .

ويصحّح وهم ابن خلّكان فى ترجمة ابن المنجم (٤) .

ويستخدم الاستقراء ، والمقارنة بين الروايات للوصول إلى الحقيقة (٥) .

وينقد قصة وضّاح اليمن مع أم البنين (٦) .

ومما يفرّق بين الذهبى والصفدى - أيضا - الاستطراد ، فالذهبى لا يخرج عن سيرة المترجم ؛ ولكنّ الصفدى يكثر من الاستطراد ، فيناقش القضايا الفقهية ، واللغوية ، والنحوية ، والبلاغية ، ويروى الطرف والفكاهة ، والألغاز ، كما يكثر من رواية الشعر لأدنى مناسبة ، ولا يغفل بيان أحوال الناس فى مسكنهم ، وملبسهم ، ومعيشتهم ؛ ولهذا فكتب الصفدى تعدّ موسوعة منوعّة المعارف ، متعدّدة الثقافات ، غزيرة الفائدة .

ونلاحظ أنّه فى تواريخه - أحيانا - يغفل سنوات الوفيات أو الميلاد ، ويترك

---

(١) أعيان العصر ١ / ١٤٢ ، و١ / ١٤٤ .

(٢) الوافى ١٦ / ٥٧ .

(٣) الغيث المسجم ١ / ٥٦ .

(٤) الوافى بالوفيات ٢٢ / ٢٧٦ .

(٥) راجع تقديره لمولد الطغرائى ، ووفاته ، فى الغيث المسجم ١ / ١٦ - ١٧ ، ويصحّح الأسماء فى مواضع كثيرة فى الوافى بالوفيات مثلا ٥ / ١٨ ، ١٨٩ ، ٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٣٦ ، ٦ / ٦٢ ، ٧٦ ، ٧ / ٢٠ ، ١٤٥ ، ١١ / ١٣٧ ، ١٤٠

(٦) الوافى بالوفيات ١٨ / ١١٩ .

مكانها خاليا ، والراجح أنّه لم يتحقّق عنده هذا التاريخ ، وقد أشار إلى ذلك بقوله[١] : « ولم أُخِلّ بذكر وفاة أحد منهم إلاّ فيما ندر ، وشذّ ، وانخرط فى سلك أقرانه ، وهو فذٌّ لأنّى لم أتحقق وفاته ، وكم مَنْ حاول أمرًا فما بلغه ، وفاته » ، فلم يكن تركه لها من السهو ، أو النسيان .

ومما امتاز به منهج الصفدى فى كتاباته التاريخية الكنى والألقاب التى يجعلها بين التراجم ، فى ترتيبها من الحروف ، فيذكر أشهر الأعلام الذين عرفوا بتلك الكنى ، أو بذلك اللقب ، وأظنّه أوّل من ابتكر هذا المنهج ، واختط هذه الطريق ، قد يكون استفادها من كتب المحدّثين ، وأدخلها كتب التاريخ ، وسار على نهجه المؤرخون من بعده ، وأشهر المعاجم التى سارت على خطته « الأعلام » للزركلى ، بل إنّ الترتيب فيه لا يختلف عن ترتيب الوافى بالوفيات ، فكلّ منهما يرتّب الأعلام بحسب الاسم الأول ، واسم الأب ، فقط ، ويقدّم السابق منهم فى الوفاة على المتأخر ، بصرف نظر عن اسم الجد ، أو اللقب ، مع ملاحظة أنّ أعلام الزركلى أكثر دقّة فى الترتيب من الوافى ، بحكم أنّ الصفدى قد يضيف اسما ، لم يتمكّن من وضعه فى ترتيبه ، وقد يكون من عمل النسّاخ[٢] .

أعيان العصر وأعوان النصر :

لا يختلف هذا الكتاب عن الوافى بالوفيات فى موضوعه ؛ من حيث كونه يشتمل على تراجم الرجال العامة ، والتى لا تختصُّ بفئة معيّنة ، وإن كان يضمّها عصر واحد ؛ ولذلك لم يقدّم له بمقدمات ، واكتفى بخطبة ، أعاد فيها ماسبق أنْ ذكره فى خطبة الوافى من فائدة التاريخ ، وضرورة الاطلاع على سيرة السابقين ؛ لما فى ذلك من الموعظة الحسنة ، فمَنْ « راجع التواريخ كان كَمَنْ شَاهَدَ مَنْ مَضَى ، وعاين ما جرى به عليه القَدَرُ وقَضَى ، وأنا أرى التأريخ ، والترجمة مِعَادًا ثانيا فى المعنى ، لا فى الوجود ، ونَشْرًا أوَّلَ قبل نَشْرِ الرُّفَاتِ ، إلاّ أنّها لم يُفَضَّ عنها خِتْمُ اللُّحُود »[٣] .

---

(١) نفسه ١ / ٦ .

(٢) راجع مثلا فى الجزء الأول من الوافى بالوفيات التراجم ١٧٢ - ١٧٦ تجد وفياتهم فى سنوات ٤٠٠ ، ٤٩٣ ، ٤٦٦ ، ٤٧٢ ، ٥٠٥ على الترتيب ، ولاحظ أن الترجمة رقم ١٧٣ سبقت غيرها .

(٣) أعيان العصر ١ / ٣٧ .

وذكر سبب تأليفه ، والخطة التى رسمها له .

أمَّا السبب - كما يقول - [١] : « هو شيء جمعته لنفسى ، لا لأحد من أبناء جنسى ، وجعلته لى رأس مال ..... وما هو إلاّ كالجبّانة أزور فيها قبور أصحابى ، وأتردد منها إلى أجداث أترابى وأحبابى ، وألتفّ فى أكفان شيبى الذى نزل بى وأَقْسَمَ أنَّه ما يرحل إلاّ بى ، فقد ذكرت فيه جماعة رأيتهم ، وما راءيتهم ، ودانيتهم حقّ الصحبة ، وما داينتهم ، ورثّت حبال صبرى التى ورثتها لمّا رثيتهم ، ممن انتفعت بعلومهم ، ورُفِعْتُ بين نجومهم ، وشَرَكْت بعضهم فى ماله » .

وأمَّا الخطة فهى :

* ترتيب أسماء من فيه على حروف المعجم ابتدأ فيه من سنة مولده ، وهى سنة ٧٩٦ هـ .

* قلّد فيه ابن زيدون الذى وقف للناس منصرفهم من جنازة ابنته ليتشكّر لهم ، فما أعاد فى ذلك الموقف عبارة قالها لأحد ممن جاء لتقديم العزاء له ، وبيّن أنّ هذا أمر صعب إلى الغاية ، فهو أشقّ مما يحكى عن واصل بن عطاء الذى كان يجتنب حرف الراء من الكلمات ؛ لأنّه يلثغ بهذا الحرف لثغة قبيحة ؛ وذلك لكثرة المترادفات فى اللغة ، والتى تساعده على أنْ يستبدل بكلمة تخلو من حرف الرَّاء كلمة أخرى ؛ فحرص الصفدى على ألا يعيد عبارة الرثاء التى قالها فى واحد من المترجمين ، وإذا عرفنا أنّ الكتاب يضم ٢٠١٧ ترجمة قدّرنا المشقّة التى ألزم نفسه بها ، وهى أنْ يعبّر عن معنى الوفاة بجمل لهذا العدد الضخم من المترجمين ، وأعانه عليها مقدرة فائقة فى توليد المعانى ، ولمح الدلالات البعيدة للكلمات المتشابهة منها ، أو المتناقضة ، فمن ذلك :

* قَدْ يجد فى الاسم أو اللقب أو الكنية ما يصلح لبناء العبارة عليه ، فمثلا :

عن أحمد بن **برق** ، يقول [٢] : « انطوى بَرْق ابن برق ، فكأنّه لم يلمع فى غرب ولا شرق » .

---

(١) أعيان العصر ١ / ٣٨ .

(٢) أعيان العصر ١ / ١٩٧ .

وعن أحمد بن أبى بكر بن **ظافر** ، يقول [١] : « ظَفَر على ابن ظافر من الموت ظافر ، وأنشب فيه مخالبه والأظافر » .

وعن أحمد بن بلبان ، ابن **النقيب** ، يقول [٢] : « نُقِب القبر لابن النقيب ، وأصابت كماله عين الرقيب » .

* وقد يوحى إليه عكس اللقب بما يريد ، فمثلا :

عن بدر الدين **المُحْسِنى** ، يقول [٣] : « أساء الدهر إلى ابن المحسنى ، وذهب من حياته بالرائق السنى » .

وعن ابن **عدلان** ، يقول [٤] : « ولم يزل إلى أنْ تسجّى ، وعُدّ فيما لا يُرَجّى » .

* وقد يستلهم عبارته من الطريقة التى مات بها المترجم ، فمثلا :

عن أبى جَلْنَك الذى **قتله** التتار ، يقول [٥] : « ضُرِبت عنقه ، وخلا من كوكبه أفقه » .

* وقد يستلهم عبارته من مهنة الشخص ، أو شهرته ، فمثلا :

عن أحمد بن عبد الملك ، **التاجر** ، يقول [٦] : « طُوِيت من الحياة شُقّته ، وعُدم ما بين معاشريه لطفه ورقّته » .

وعن أحمد بن محمد ، **المسند** ، يقول [٧] : « ولم يزل على حاله إلى أنْ مال عُمُدُه ، واتّصل بغيره سنده » .

وعن أحمد بن عبد الرزّاق ، وزير الممالك القازانيّة ، وكان **ظالما** سفّاكا للدماء ، يقول [٨] : « ولم يزل فى ظُلْمَةِ ظُلْمِهِ خابطا ، وعمله بذاك عند الله حابطا ، إلى أنْ عَضّه السّيف بريقه ، واختطف بصره من بريقه » .

وعن الأندرشى الصوفى ، أقرأ **التسهيل** وشرحه ، يقول [٩] :

---

(١) أعيان العصر ١ / ٢٠١ .
(٢) نفسه نفسه ١ / ٢٠٢ .
(٣) نفسه ١ / ٢٠٦ ، والمحسنى هو أحمد بن يلبك .
(٤) نفسه ٤ / ٢٩٨ ، وابن عدلان هو محمد بن أحمد بن عثمان .
(٥) أعيان العصر ١ / ١٩١ ، وأبو جلنك هو أحمد بن أبى بكر ، الشاعر .
(٦) نفسه ١ / ١٦٩ .
(٧) نفسه ١ / ٣١٤ .
(٨) ١ / ٢٦٥ .
(٩) نفسه ١ / ٢١٧ ، والأندرشى هو أحمد بن سعد بن محمد .

« ولم يزل مكبّا على التسهيل حتى محقه الإسهال ، وذكره الموت بعد الإمهال والإهمال » .

* وقد يصحّف الاسم أو اللقب فيحصل على بغيته ، فمثلا :

عن **البزاعى** ، يقول [١] : « ولم يزل على حاله إلى أنْ مُرِّغَت بالموت صفاته ، وشُرِّعت وفاته » .

* وقد يعتمد الجناس للحصول على ما يريد ، فمثلا :

عن أحمد بن عبد الرحمن ، شهر **بالعابر** ، وكان أعجوبة فى تفسير المنامات ، يقول [٢] : « أصبح العابر غابرا ، والمكاثر فى تعظيمه لمصابه مكابرا » .

وعن **الصرخدى** القوّاس ، يقول [٣] : « أصاب القوّاس سهم الموت ، وصرخ بالصرخدى داعى الفوت » .

وعن **الدّشْتى** ، يقول [٤] : « ولم يزل إلى أنْ انقلب دشت الدّشتى وحار فيما نزل به الطبيب والمفتى » .

* وفى قليل جدّا من الأحيان ، لا يجد ما يقوله إلاّ نقل الخبر [٥] .

بين الوافى والأعيان

كثير من تراجم المعاصرين للصفدى قد تتكرر فى أكثر من كتاب من كتبه ، فللذهبى مثلا ترجمة فى الوافى بالوفيات ، وأعيان العصر ، ونكت الهميان ، وألحان السواجع ، ولكل منها منهج خاص به ، وأسلوب متميّز ، ولكنَّ مقارنة الترجمة الواحدة فى الكتب المختلفة تظهر فرقا واضحا بين أسلوب الصفدى فيها ؛ فهو فى الوافى بالوفيات مؤرخ ، وفى أعيان العصر أديب ؛ يتّضح هذا الفرق من تعبيره عن المعنى الواحد فى الكتابين فمثلا :

فى ترجمة ابن الرسام [٦] يقول فى الوافى بالوفيات : « وكان يكتب خطًّا جيِّدًا

---

(١) أعيان العصر ١ / ٢١٦ ، والبزاعى هو أحمد بن خليل .

(٢) نفسه ١ / ٢٥٩ .

(٣) نفسه ١ / ٢٥٨ ، والصرخدى هو أحمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم .

(٤) نفسه ١ / ٣٥١ ، والدشتى هو أحمد بن محمد بن أبى القاسم .

(٥) راجع مثلا : ١ / ١٩٦ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ...

(٦) الوافى ٢٢ / ١٧٩ ، والأعيان ٣ / ٥٢٠ .

إلى الغاية ، والغريب أنّه كان يكتب هذه الكتابة المليحة بيده اليسرى ، ولا يُحْسن يكتب باليمنى شيئا » .

والعبارة نفسها فى الأعيان : « يكتب بيده اليسرى خطًّا كأنّه العقود المنظومة ، أو حلل الوَشْى المرقومة ، يُعْجِبُ كلّ من يراه ، ويجعل كلُّ أَحَدٍ إليه سَيْرَهُ وسُرَاه » .

وقارن ترجمة زين الدين الكتانى فى الكتابين [١] .

وبالرغم من أنّ الصفدى يصرّح بأنّ الوافى بالوفيات تاريخ مطوّل ؛ فأراد بعد الفراغ منه أن يختصره فى أعيان العصر [٢] ، ومع ذلك فإنّه لا يمكن اعتبار الأعيان مجرّد ملخّص للوافى ، وذلك للأسباب الآتية [٣] :

* فى أعيان العصر تراجم لا وجود لها فى الوافى .

* فى أعيان العصر توسّع وتفصيل فى أغلب تراجمه أكثر بكثير مما فى نظائرها من الوافى ، بحيث لا يمكن اعتباره اختصارا له .

* فى الأعيان عدد أكبر من الوثائق التاريخية ، والصور الاجتماعية والعادات والتقاليد ، واللغة المتداولة .

* لا يُعَدّ كتاب الأعيان مجرّد قبور يزور فيها أصحابه الذين سبقوه بل هو ، فى واقع الأمر مَعْرِض جمال ، ومُتْحَف فنون أراد به أنْ يستمتع بمشاهدة آياته ، وينفى عنه ما يراه قبيحا ، وأظهر لوحاته ، وتحفه الخطوط الجميلة التى اتخذها الصفدى موضوعا لمدحه ، وتغزلاته ، ويستعرض فنونه البلاغية فى تقريظها .

يقول عن خط البرزالى [٤] : « خطه كالوشى اليمانى ، أو رونق الهندوانى ، لم يخلف بعده فى الطلب وعمله مثله ، ولا جاء من وافق شكلُه شكلَه » .

ويصف خط محمد بن على الزملكانى بقوله [٥] : « لم يكتب أحد فى زمانه

---

(١) فى الوافى ٢٢ / ٤٤٩ ، تأتى ترجمته فى صفحة وثلاثة أسطر ، وفى الأعيان ٣ / ٦٠١ فى أكثر من ثمانى صفحات .

(٢) أعيان العصر ١ / ٣٨ .

(٣) نفسه ١ / ١٢ .

(٤) نفسه ٤ / ٥٠ .

(٥) أعيان العصر ٤ / ٦٢٨ .

مثل تعليقه ، ولايصل معه كاتب إلى تغليقه ، كأنّ طروسه رياض دَبَّجَها أيدى الغمام ، سطوره حدائق ألفاتها غصون ، والهمزات عليها حمام ، كأنّما :

تَنَاوَلَ مِنْ لَطَافَتِهِ نَهَارًا وَفَرَّقَ فَوْقَهُ لَيْلاً بَهِيمَا

وعن خط ابن سيّد الناس [١] يقول : « خطه أبهج من حدائق الأزهار ، وآنق من صفحات الخدود المطرّزِ وردها بآس العذار » .

وقال عن خط أبى الثناء محمود [٢] : « وخطه من أين للوشى رقمه أو للعقد نظمه ، أو للروض زهره ، أو لطرف الحبيب سحره ، أو للنجوم طرائقه ، أو لخطوط إقليدس دقائقه ، أو للفكر الصحيح حقائقه ؟ قد نمّق أوضاعه المتأنّقة ، ونسخ محاسن من تقدّمه بحروفه المحقّقة :

يُنَمْنِمُ الخَطَّ لاَ يَجْتَابُ أَحْرُفَهُ
وَالوَشْىُ مَهْمَا - حَكَاهَا - مِنْهُ يُجْتَابُ
لَوْ لَمْ يَكُنْ مُسْتَقِيمًا بَعْدَ مَا سَجَدَتْ
فِيهِ المَعَانِى لَقُلْتُ : السَّطْرُ مِحْرَابُ
أَمْلَى تَصَانِيفَ فِى أَكْمَامِهَا ثَمَرٌ
تَجْنِيهِ بِالفَهْمِ دُونَ الكَفِّ أَلْبَابُ

ويقول عن خط ابنه محمد بن محمود [٣] : « كان يكتب خطا نقشا نغشا مليحا إلى الغاية » .

وإذا لم تعجبه اللوحة ، انصرف عنها ، يقول عن خط ابن القوبع [٤] : « كان خطه مغربيا ، وليس بجيّد » .

يصدق على هذا المتحف ، بحق ما وصفه به الدكتور مازن عبد القادر المبارك ، قال [٥] : « إنّ الكتاب موسوعة للتراجم ، والتاريخ ، والاجتماع ، واللغة ، والأدب ، وغير ذلك :

---

(١) أعيان العصر ٥ / ٢٠٣ .
(٢) نفسه ٥ / ٢٧٢ .
(٣) أعيان العصر ٥ / ٢٥٥ .
(٤) نفسه ٥ / ١٥٤ .
(٥) نفسه ١ / ١٠ .

ففيه أخبار الرجال وسيرهم لمن أراد التراجم .

وفيه الوقائع والأحداث لمن أراد التاريخ .

وفيه العادات والتقاليد لمن أراد الاجتماع .

وفيه النصوص الأدبية من شعر ، ونثر ، ومحاورات ،

ومخاطبات ، إلى جانب اللغة المحكيّة ، والأحاديث اليومية ، وما دار فيها من مصطلح ، ودخيل ، وعَامِّيّ .

وفيه إشارات توثق بعض آثار ذلك القرن من مساجد ، وقلاع ، وسواها ، وإنّ فى كل ذلك لجديدا لا تجده فى غيره » .

لم يسبق أحد الصفدى إلى تأليف مثل هذا الكتاب ، صحيح أنّ هناك مَنْ ترجم المعاصرين له ، مِنْ قبله ، من أمثال :

الثعالبى [١] فى كتابيه يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر ، وتتمة اليتيمة .

والباخرزى [٢] فى دمية القصر وعصرة أهل العصر .

والعماد الكاتب فى خريدة القصر وجريدة العصر .

ولكنّ ما أبعد الفرق بين هذه الكتب وبين الأعيان ، فمن الفروق بينها وبينه :

* إنّ إطلاق لفظ التراجم على ما حوته تلك الكتب يحمل فى طيّاته الكثير من التجوّز ، بل أصدق وصف لها أنْ يقال عنها : إنّها تقريظ ، ومدح ، واختيار لنصوص ، لا أكثر من ذلك ؛ فهى من باب النثر الفنى ، أو الإنشاء الأدبى ، فمثلا اقرأ هذه التراجم :

« أنا أختم هذا الباب بذكر من هو للعِلْم مجمع ، وللأدب مفزع ، وإليه الرّحلة

---

(١) أبو منصور ، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل (٣٥٠ - ٤٢٩ هـ) لغوى أديب ، مؤرخ ، شاعر . انظر : دمية القصر (تح العانى) ٢ / ٢٢٨ ، والذخيرة ٤ / ٢ / ٥٦٠ ، وسير أعلام النبلاء ١٧ / ٤٣٧ ، والعبر ٢ / ٢٦٣ ، والوافى بالوفيات ١٩ / ١٩٤ ، والأعلام ٤ / ١٦٣ ، ومعجم المؤلفين ٦ / ١٨٩

(٢) أبو الحسن ، على بن الحسن بن على ، نور الدين ، السُّنْجِى (ت ٤٦٧ هـ) أديب ، شاعر ، من كتاب الديوان . انظر : الأنساب ٢ / ٢١ ، وذيل تاريخ بغداد ٢٩٤ ، والكنى والألقاب ٢ / ٦٣ ، والأعلام ٤ / ٢٧٢ ، ومعجم المؤلفين ٧ / ٦٥ .

اليوم ببغداد ، فى تدريس كتب الشافعى - رحمه الله - مع الشيخ أبى حامد الإسفرائينى - أيّده الله - وله لسان يستوفى أقسام الفصاحة ، ويجمع بين العذوبة وحسن العبارة والبراعة ، وشعر يشرف بصاحبه ، ويأخذ من القلب بمجامعه ، كقوله ...» [١] .

« استكرمه الصاحب نظام الملك - أدام الله علوّه - فارتبطه ، وقبض منه الزمان فبسطه ، وأسكنه المدرسة المعمورة بنيسابور ، وهو يغرس بخطّه الدُّرَّ فى أرض القراطيس ، وينشر عليها أجنحة الطواويس ، أنشدنى ، لنفسه ... » [٢] .

« ليس بالشام فى عصرنا هذا مثله : رقة شعر ، وسلامة نظم ، وسهولة عبارة ولفظ ، ولطافة معنى ، وحلاوة مغزى ، بأسلوب سالب لِلُبِّ ، خالب لِلْخِلْب ، وصنعته عارية من التكلف ، نائية من التعسف ، تترنّح له أعطاف السامعين ، وتُنْبِع رقّته فى رياض اللطف الماءَ المعين ، لمّا كنت بحلب ، وعند تردُّدى إليها فى عهد نور الدين - سقى الله ثراه عِهَاد الرحمة - ما زلت أسمع من شعره ما يزيدنا طربا ، ويفيدنى عُجْبًا وعَجَبًا ، ومن جملة ما علقته من شعر حمّاد ، وهو يحيى كلّ جماد قوله ...» [٣] .

من هذه النصوص يتّضح طريق تلك الكتب فى التراجم ، وأغلبها على هذا النمط ؛ فلم يُعْنَ مؤلفوها بما يجب أنْ تنبئ به الترجمة من تاريخ المولد والوفاة ، وأحوال المترجم ، وبيان مؤلفاته

إلاّ فى القليل النادر ... بينما نجد الأعيان كتاب تراجم على أكمل أنموذج ، يعرّف بالشخص من حيث :

اسمه ، ونسبه ، وكنيته ، ولقبه ، ومهنته ، ووظائفه ، مع وصف شامل لأخلاقه ، وعاداته ، وسلوكه ، وعلاقاته بالناس ، وأثره فى معاصريه ، ومكانته العلمية والاجتماعية ، ومنزلته بين أقرانه ، ومدى قربه من نفس الصفدى ، ويسوق هذا

---

(١) ترجمة أبى محمد ، عبد الله بن محمد النامى ، الخوارزمى ، الشاعر ، من اليتيمة ٣ / ١٢٢ .

(٢) ترجمة أبى القاسم عزيزان بن محمد ، الخطّاط ، النظّامى ، التبريزى ، من دمية القصر (تح مكى) ١ / ١٩٦ .

(٣) ترجمة حمّاد بن منصور ، البزاعى ، الخرّاط ، من خريدة القصر (شعراء الشام) ٢ / ١٣٠ .

القسم من الترجمة فى عبارة أنيقة فخمة ، وجمل مسجوعة عذبة ، ويطوّل فيه ، أو يقصّر بحسب مكانة المترجم ، ومنزلته .

ينتقل بعد هذا القسم إلى التحدث عن نشأته ، وأبرز أحداث حياته ، وأعماله ، وبيان واف لشيوخه ، وتلاميذه ، ومؤلفاته ، إن كانت له مؤلفات ، ثمّ يأتى بنماذج منتقاة من شعره ، أو نثره ، وربّما انتقد بعضها ، أو أورد ما يناسبها ، أو ما هو أحسن منها ، أو الأصل المسبوق به ، وما بينه وبين الصفدى من مراسلات ، ومعارضات ، وألغاز ..... ويؤرخ لولادته ، ووفاته إلاّ إذا لم يتأكد له أحد التاريخين ، أو كلاهما فيترك مكانه خاليا ، وهو قليل جدّا فى كتابه .

وإذا كان العَلَمُ المترجم من السلاطين ، أو الخلفاء ، أو الأمراء أو الحكام ؛ فإنّه يفصّل أعماله ، وكيفية توليه ، واستقبال الرعيّة لحكمه ، وأعماله ، ومكانته بين الملوك ، أو الأمراء ، وتصدّيه لأعدائه ، وبرّه أصحابه ، وتكاد تكون الترجمة تأريخا يوميّا يواكب حياة الرجل فى ولايته ، ولا يغفل - فى الوقت نفسه - تصوير أخلاقه ، وحياته الأسريّة ، ونظام معيشته ، يسوق ذلك فى أسلوب بسيط ، خال من التأنّق ، تشيع فيه العاميّة ، والألفاظ الدخيلة ، والعبارات السائدة فى عصره ، فهو يحكى حديث الناس فى أمانة ، ويمثّل هذا الجزء أهميّة كبيرة لدارسى اللهجات ومتتبعى التطور اللغوى ، والصوتى للكلمات .

* ترجمت تلك الكتب لفئة واحدة من الناس ، هم أهل الفكر من علماء ، وأدباء ، وشعراء ، بينما كانت دعوة الصفدى الجفلى فى الأعيان - كما كانت فى الوافى ، على حدّ قوله - فلم يترك من أعيان المجتمع فردا ، بلَغَه خبره ، لم يترجمه ، سواء أكان أميرا ، أم وزيرا ، أم عالما ، أم تاجرا ؛ بل لم يترك حتى الخارجين عن القانون ، وأصحاب البِدَعِ .

* تشترك تلك الكتب مع الأعيان فى اختيارات النصوص الأدبية ولكنها خلت تماما من تصوير لعصورها فى العادات ، واللغة ، والأزياء ، والأحداث ...بينما وفّى الأعيان تصوير تلك الجوانب .

* خلتْ تلك الكتب تماما من الوثائق التاريخية بالعكس من الأعيان الذى ضم المئات من تلك الوثائق الهامة .

* يمكن أنْ نجد فى دواوين الشعراء ، ومجاميع الأدب ، وكتب التاريخ ما يغنى عن تلك الكتب ، ولا يوجد ما يغنى عن الأعيان ويمكن القول [١] : « إنّ الصفدى سنّ للناس بعده سنّة التأليف فى هذا الفن « تراجم المعاصرين » ؛ فأنشأ بعده ابن حجر العسقلانى كتابه « إنباء الغُمر بأبناء العُمر » ، وتمّمه إبراهيم بن عمر البقاعى (ت ٨٨٥ هـ) [٢] فى كتابه « إظهار العصر لأسرار أهل العصر » ، وترجم بالتأريخ للأعيان من ٨٥٥ - ٨٨٥ هـ ، كما تمّمه - أيضا - أحمد بن محمد ، الأنصارى ، ابن الحمصى ، الشافعى [٣] ، فى كتابه « حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران » ترجم فيه لمعاصريه من سنة ٨٥١ حتى ٩٠٠ هـ » .

وترسّم ابن طولون خطا الصفدى فى أعيان العصر ؛ فكتب كتابه « ذخائر القصر فى تراجم نبلاء العصر » ، وسار على نهجه فى ألحان السواجع ؛ فكتب كتابه « التمتع بالأقران بين تراجم الشيوخ والأقران » .

الشعور بالعور

سبق الصفدى كَثِيرٌ من العلماء والأدباء والمؤرخين الذين ألّفوا كتبا فى طبقة من الناس ، أو فى فئة ، تجمعهم صفة مشتركة أو عاهة عرفوا بها ؛ فاقتفى أثرهم ، وسار فى دربهم ، وقسّم كتابه - كعادته إلى خطبة ، ومقدمات ، ونتيجة .

فى خطبة الكتاب [٤] أشار إلى أنّه بعد أنْ أكمل تصنيف « نكت الهميان فى نكت العميان » ، رغب فى أنْ يردف ذلك بمصنّف آخر ، يقتصر فيه على ذكر العور ، ورسم خطّته ؛ فرتّبه على مقدمات ، ونتيجة .

---

(١) مقدمة الأعيان ١ / ٢٣ .

(٢) البقاعى (٨٠٩ - ٨٨٥ هـ) مؤرخ ، أديب ، له « عنوان الزمان فى تراجم الشيوخ والأقران » ، اختصره فى عنوان العنوان .

انظر : الأعلام ١ / ٥٦ ، ومعجم المؤلفين ١ / ٧١ .

(٣) ابن الحمصى (٨٥١ - ٩٣٤ هـ) مؤرخ ، من كتابه ثلاث قطع تبدأ الأولى بحوادث ٨٥١ ، وتنتهى الثالثة بآخر ٩٣٠ هـ .

انظر : الأعلام ١ / ٢٣٣ ، ومعجم المؤلفين ٢ / ١٣٨

(٤) الشعور بالعور ٤٠ .

والمقدّمات ست :

المقدمة الأولى : فيما يتعلّق بلفظ « العور » ، وتقلّبات حروفها ، فبيّن معانيها فى اللغة ، وأنّها لا تخرج عن معنى التخوّف ، ومنها سُمّيت سوءة الإنسان « عورة » ؛ لأنّه يتخوّف من رؤيتها ، وعرّف العورة عند الفقهاء ، وأحكام سترها عند الذكر ، وعند الأنثى ، ثم تتبّع معانى اشتقاقها الكبير فى كتب اللغة ، والمعاجم .

المقدمة الثانية : فيما يتعلّق بالعور من حيث التصريف ، والإعراب وبعلم غزير ، ونظر ثاقب تتبّع صيغة أفعل فى التعجب ، والتفضيل فبيّن معانيها ، وسبب منعها من الصرف ، وما يقاس منها ، وشواذ بنائها ، مستدلا على ذلك بالأمثال ، والشواهد الشعرية .

المقدمة الثالثة : فيما يتعلّق بحديث الدجّال لكونه أعور ، فبيّن معنى الدجال لغة ، وأورد الأحاديث الشريفة من صحيحى البخارى ومسلم ، وفسّر غريبها ، وضبطها ، وتأوّل معنى ما أشكل منها .

المقدمة الرابعة : فيما له بالأعور علاقة من الفقه ، فبيّن أحكام : الدية فى عين الأعور ، وهل تصح خلافة الأعور ؟ ، وهل يجبر مستحق الغِرّة [1] على قبول الأعور؟ وجزاء الكفارة ، والصيد والأضحية ، والكفاءة فى النكاح .

المقدمة الخامسة : فيما جاء من الأمثال والنوادر فى حق الأعور ، وغير ذلك ، فذكر سبعة أمثال مما روته كتب الأدب ، وشرح قصصها ، ومضرب المثل بها .

المقدمة السادسة : فيما جاء من الشعر فى العور ، فذكر ٢٥ مقطوعة من بيت واحد ، أو بيتين ، أو ثلاثة لشعراء عبّروا عن رضاهم ، بالعور ، أو الافتخار به ، أو التغزل فى العور الملاح ، ثم زاد فى آخرها مقطوعتين من نظمه ، فى المعنى .

النتيجة : وسرد فيها تراجم العور ، على حروف المعجم ، فذكر ٨١ ترجمة ، سلك فيها سبيل الاختصار ، ولا يختلف أسلوبه فيها عن أسلوبه فى الوافى ، مع استطرادات فى النقد ، واللغة ، والقصص ، والطرف ، كما هى عادته .

---

(١) الغِرّة : شقّ العصا ، وهى أنْ يبايع رجل رجلا آخر، دون الجماعة؛ فالبيعة حقها أنْ تقع صادرة عن المشورة والاتفاق . انظر : اللسان « غرر » ٥ / ١٣ .

وأنقل هنا ما كتبه محقق الكتاب عن قيمته ، فقد أجاد التعبير ، وأحسن التقدير ، قال : « إنّ هذا الموضوع الذى لم يخصّه أحد بمصنّف برأسه سوى مؤلفنا الصفدى ليبرز القيمة الغنيّة الواضحة لهذا الكتاب ، وإذا ما أزحنا الستار عن قيمة هذا الكتاب فإننا نستطيع أن نجملها فى الآتى :

١ - قيمة لغوية : وتظهر فى تتبُّع المؤلف ، وعرضه الواسع لمادة « عور » بمعانيها ، وحدودها ، وتقلباتها ، ومشتقّاتها ، فلم يترك ما يستشهد به من آيات قرآنية ، وأحاديث شريفة ، وأشعار ، وأمثال إلاّ وأتى بها ، إلى جانب ذلك الغريب الذى عرض له ، وفسّره من أحاديث الرسول ﷺ فى الدَّجّال .

٢ - قيمة فقهية : وتتّضح فى عرض المؤلف لحد العورة عند الفقهاء ، ثمّ بيان ما له علاقة بالأعور من الفقه ، سواء فى الدّية ، أو الحكم ، أو الزكاة ، أو الأضحية ، إلى آخر ذلك .

٣ - قيمة تظهر من خلال إيراده لأحاديث المصطفى ﷺ فى الأعور الدَّجّال ، واستقصاء هذه الأحاديث ، ثم تفسير غريبها ، ومعانيها ، وتأويل ما أشكل منها .

٤ - قيمة تراجمية : بالحديث عن الشخصية ، وملامحها ، وصفاتها وأخلاقها ، وعاداتها ، وإدراك أبعادها التاريخية .

٥ - قيمة أدبية : فهو مرجع لكثير من النصوص الشعرية والنثرية وهو بعد ذلك مصدر لما ذكره من أشعار الشعراء الذين عاصروه ، إلى جانب أنّه جمع بين دفّتيه بعض ما قيل فى العَوَر ، والعُور من نصوص شعرية تمتد فى الزمان من عصر المؤلف إلى العصر الجاهلى إلى جانب ذلك فإنَّ كون المؤلف أديبا ، شاعرا ، ناقدا عزّز المكانة الأدبية لهذا الكتاب ، سواء أ كان ذلك عن طريق الأسلوب الواضح غير المتكلّف الذى سار عليه المؤلف ، أم تلك اللمحات النقديّة التى ظهرت فى أثناء حديثه عن الأدباء ، والشعراء ، ثمَّ ذلك الميل الذى يجرفه ، دون أنْ يدرى إلى ميدان الأدب » [١] .

---

(١) الشعور بالعور ١٩، ٢٠ .

نَكْت الهِمْيَان فى نُكَت العُمْيَان

هذا الكتاب أسبق من الشعور بالعور تأليفا ، وهو كغيره من كتب الصفدى منسّق فى خطبة ، ومقدمات ، ونتيجة .

خطبة الكتاب : بيّن فيها المؤلف سبب تأليفه ؛ فقد اطّلع على كتاب « المعارف » لابن قتيبة [١] ، وعلى كتاب « تنقيح فهوم أهل الأثر » لابن الجوزى [٢] ، وعلى كتاب « رأس مال النديم » لابن بانة [٣] ، وفى آخر كل منها فصل فى العميان الأشراف ، كما علم بأنّ الخطيب البغدادى [٤] جمع جزءا فى العميان لم يره ، وفى فصل فى كتابه شرح لامية العجم ذكر فيه جماعة من أشراف العميان ؛ فاقترح عليه بعض أصحابه أنْ يفرد للعميان تصنيفا ، يخصّهم فيه بالذكر ، فأجابه إلى ما طلب .

ثمّ بيّن طريقة ترتيبه على مقدمات ونتيجة .

المقدّمات : عشر ، وخاتمة .

المقدمة الأولى : فيما يتعلّق بالعمى من اللغة ، والاشتاق ، فرأى أنّ « ع . م » كيفما وقعتا فى اللغة ، وبعدهما حرف من حروف المعجم لا يدلّ المجموع إلاّ على ما فيه معنى الستر ، أو ذهاب الصواب ، على الرأى .

ثم تتبّع الكلمات التى جاءت فيها العين فاء ، والميم عينا ، وبيّن معانيها ، مستشهدا لها بالأمثال ، والشعر .

---

(١) أبو محمد ، عبد الله بن مسلم (٢١٣ - ٢٧٦ هـ) عالم ، ناقد ، أديب
انظر : التمييز والفصل ١ / ٣٠٩ ، وسير أعلام النبلاء ١٣ / ٢٩٦ ، وميزان الاعتدال ٢ / ٥٠٣ ، وطبقات المفسرين ، للداودى ١ / ٢٤٥ ، والأعلام ٤ / ١٣٧ ، ومعجم المؤلفين ٦ / ١٥٠ ، و١٣ / ٤٠٢ .

(٢) أبو الفرج ، عبد الرحمن بن على بن محمد (٥٠٨ - ٥٩٧ هـ) مؤرخ ، محدث . انظر : التكملة لوفيات النقلة ١ / ٣٩٤ ، المختصر المحتاج إليه ٢ / ٢٣٨ وغاية النهاية ١ / ٣٧٥ ، والأعلام ٣ / ٣١٦ ، ومعجم المؤلفين ٥ / ١٥٧

(٣) أبو العباس ، أحمد بن على بن بانة - أو بابه - (ت ٥١٠ هـ) مؤرخ .
انظر : معجم المؤلفين ١ / ٣١٩ .

(٤) أبو بكر ، أحمد بن على بن ثابت (٣٩٢ - ٤٦٣ هـ) حافظ ، مؤرخ .
انظر : الوافى بالوفيات ٧ / ١٩٠ ، والأعلام ١ / ١٧٢ ، ومعجم المؤلفين ٢ / ٣

المقدمة الثانية : فيما يتعلّق بالعمى من جهة التصريف ، والإعراب والمعانى التى تدلّ عليها صيغة « أفعل » وعلل لمنعها من الصرف وما تصاغ منه ، وشواذ صوغها ، مستشهدا لقواعده بالقرآن الكريم ، والحديث الشريف ، وشواهد الشعر .

المقدمة الثالثة : فى حدّ العمى ، ومعناه فى اللغة ، وعند الفقهاء وفى هذه المقدمة فصول ، تناول فيها : أفضلية السمع على البصر ، هل للأعمى حظ فى الرؤيا ؟ ، ما يتعلّق بالأعمى من علم تعبير الرؤيا ، هل يبصر الأعمى ملك الموت ؟ ، العميان أكثر الناس نكاحا ، فوائد تتعلّق بالأعمى ، والعَمَى .

المقدمة الرابعة : فى تفسير آيات وردت فى الأعمى ، فذكر ثلاث آيات من القرآن الكريم ، ونقل تفسير الفخر الرازى [1] فيها ، وردّ عليه أكثر ما اعترض به فى معناها .

المقدمة الخامسة : فيما جاء فى العمى ، والأعمى من الأخبار والآثار ، فذكر حديثا فيه قصة أبرص ، وأقرع ، وأعمى ، وابتلاء الله لهما ، وغيرها من القصص ، والأحاديث .

المقدمة السادسة : هل يجوز العمى على الأنبياء ؟ وبسط الآراء فى الردّ على من يمنع ذلك .

المقدمة السابعة : فيما يتعلّق بالأعمى من الأحكام فى الفروع مما يخالف فيها البصراء ، وهى عدّة أحكام على مذهب الإمام محمد بن إدريس الشافعى – قدّس الله روحه – ، وهى كثيرة ، منها :

الاجتهاد فى الأوانى ، والاجتهاد فى القبلة ، وكراهية أذانه ، وإمامته ، وهل تجب عليه الجمعة ؟ ، وهل تسقط الجماعة عنه ؟ ، وهل يجب عليه الحج إذا لم يجد قائدا ؟ ، وبيع الأعمى وشراؤه ، وهل للأعمى أنْ يكاتب عبده ؟ وحكم بيع سَلَمِه ، وهل يجوز كونه وليا فى النكاح ؟ ، وهل يصح أنْ تكون الحاضنة عمياء ؟

---

(١) أبو عبد الله ، محمد بن عمر بن الحسين ، ابن خطيب الرى (٥٤٤ – ٦٠٦ هـ) مفسّر ، شاعر ، واعظ . انظر : الجامع المختصر اللوحة ٣٥٧ ، والتكملة لوفيات النقلة ٢ / ١١٢١ ، وتاريخ الإسلام ، للذهبى [الطبقة ٦١] ٢٠٤ ، والعبر ٣ / ١٤٢ ، والأعلام ٦ / ٣١٣ ، ومعجم المؤلفين ١١ / ٧٩ .

وهبل تصح ذكاته ، وصيده بالكلب والرمى ؟ ، وأحكام الدية فى الحدقة العمياء ، والحدقة القائمة ، والجنايات ، وقبول شهادته ، وروايته ، وسقوط الجهاد عنه ، وحكم العمى فى الأضحية .

المقدمة الثامنة : فيما يعتقده المنجمون فى سبب عمى المولود ، ونقض آراءهم ، وكذّب دعواهم .

المقدمة التاسعة : فى نوادر العميان .

المقدمة العاشرة : فى شعر العميان وما قيل فيهم من الغزل ، وغيره .

خاتمة المقدمّات : وفيها تعليل لذكاء العميان ، ومقدرتهم على الحفظ ، ومهاراتهم فى أداء الأعمال التى يؤدّيها البصراء ، وضرب أمثلة بعدد من العلماء فاقوا غيرهم فى فنون الأدب ، والعلم .

النتيجة : وهى الغرض من الكتاب ، وسرد فيها تراجم ٣١٠ من العميان على حروف المعجم ، سواء ولدوا عميا ، أم فقدوا البصر فى حياتهم ، وأسلوبه فى التراجم ، لا يختلف عنه فى الوافى بالوفيات ، أو الشعور بالعور .

وأمّا عن الكتاب وأهميّته فيمكن أن يقال عنه ، ماقيل عن الشعور بالعور من أنّ له قيمة لغوية ، وفقهية ، وقصصية ، وتراجمية ، وأدبية ، « ولو لم يكن لهذا الكتاب من مزيّة أخرى سوى إرشادنا إلى أنّ العرب كانوا السابقين فى اختراع الكتابة البارزة الخاصة بالعميان لكفاه فضلا وفخرا ، وذلك أنّ أحد أفاضل العميان وهو برايل Braille خلّد اسمه وشرّف قومه الفرنسيين باستنباط الأسلوب المنسوب إليه لتعليم العميان القراءة والكتابة ، ولكنّ السابق السابق فى هذا الميدان هو أحد أعلام الشرق كما تراه فى ترجمة على بن أحمد ، زين الدين ، أبو الحسن ، الحنبلى ، الآمدى ، العابر [١] .

---

(١) كان أعجوبة الزمان فى تعبير الرؤيا ، وكان صدوقا ، صالحا كبير القدر ، له جواهر التبصير فى علم التعبير ، وتعاليق كثيرة فى الفقه والخلاف ، وغير ذلك وكان يتّجر فى الكتب ، وابتكر طريقة يعرف بها الخطوط ، ولون الحبر ، ويثمن الكتاب بحساب الجمّل ، وتوفى بعد ٧١٢ هـ . انظر : نكت الهميان ٢٠٦ ، وأعيان العصر ٣ / ٢٦٢ ، والدرر الكامنة ٣ / ٢١ .

فهذا الشرقى العربى هو الذى يرجع له ، دون سواه الفضل كل الفضل فى اختراع الكتابة الخاصة بالعميان » [١] .

أثر الصفدى فى من بعده من المؤرخين

كان الصّفدى مؤرخا ثبتا ، حافظا ، ضابطا ، ثقة فيما يقوله ، وفيما ينقله ، وقد عرف له قدره كل من جاء بعده إلى يومنا هذا ، وإلى أن يشاء الله ، فلا يخلو كتاب من كتب التاريخ فى القرن الثامن الهجرى ، وما بعده من نقل عنه ، وقد سبق أنْ بيَّنت أثره فى :

ابن حجر ، والبقاعى ، وابن طولون ، وابن الحمصى ، الذين اقتفوا أثره ، ونهجوا نهجه فى ترجمة معاصريهم وممن تأثّر به أيضا :

ابن شاكر الكتبى [٢] يعتمد مؤلفاته فى كتبه ، وبخاصة فى فوات الوفيات [٣] ، و عيون التواريخ .

وابن تغْرى بَرْدى كان من أكثر المؤرخين نقلا عنه [٤] ، وإعجابا به ، وكتب كتابه الكبير « المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى » .

الذى أكمل به الوافى بالوفيات ، وجعله ذيلا له [٥] .

والسيوطى [٦] ينقل عنه فى بغية الوعاة [٧] ، وغيره .

---

(١) مقدمة نكت الهميان ج .

(٢) محمد بن شاكر بن أحمد ، صلاح الدين (ت ٧٦٤ هـ) مؤرخ ، أديب
انظر : الأعلام ٦ / ١٥٦ ، ومعجم المؤلفين ١٠ / ٦١ .

(٣) راجع : مقدمة الفوات ، للدكتور إحسان عباس .

(٤) انظر : الوافى ٩ / ٦٥ ، و٧٠ .

(٥) فيه نقل كثير من الوافى ، من ذلك وصف عرس آنوك ١ / ١١٠ .

(٦) عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد ، جلال الدين (٨٤٩ - ٩١١ هـ) حافظ ، مفسر ، محدث ، لغوى ، مؤرخ ، أديب ، أكثر المؤلفين العرب تصنيفا .
انظر : الأعلام ٣ / ٣٠١ ، ومعجم المؤلفين ٥ / ١٢٨ .

(٧) الوافى بالوفيات ١٨ / ٥٣٩ .

obeikandl.com

والنعيمى [١] ينقل عنه فى الدارس فى تاريخ المدارس [٢] .

والخوانسارى : يقول فى روضات الجنات [٣] : « وقد تكرّر ذكره فى تضاعيف هذا الكتاب ، والنقل عن كتابه « الوافى بالوفيات » الذى جعله ذيلا لتاريخ ابن خلكان المشهور » .

وغير هؤلاء كثيرون ، ولم يكن أثره فيهم مجرّد النقل عنه ؛ بل فتح لهم طريقا جديدة فى الترجمة القائمة على الوصف الفنى ، ورسم الشخصيّة فى صورة تبرز جميع جوانبها الخِلْقية ، والخُلُقية .

* * *

(١) أبو المفاخر ، عبد القادر بن محمد بن عمر (٨٤٥ - ٩٢٧ هـ) مؤرخ دمشق فى عصره . انظر : الأعلام ٤ / ٤٣ ، ومعجم المؤلفين ٥/ ٣٠١ ، و١٣ / ٣٩٨ .

(٢) الوافى بالوفيات ١٤ / ٢١٣ .

(٣) روضات الجنات ٧١٧ .

obeikandl.com